الضريح

كرم صابر

روايات
صفصافة



SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com

الضريح

كرم صابر





كرم صابر /أديب وحقوقي مصري نشأ في منطقة زراعية شمال القاهرة، وعمل بحرف يدوية متصلة بالزراعة حتى امتهن المحاماة عام 1989، أسس مركز الأرض لحقوق الإنسان بالقاهرة، ونشر مجموعة من الأعمال السردية منها "غرفة الإنعاش" و"الحب والأذى". وله تحت الطبع رواية "نور الشمس" ومجموعتين قصصيتين هما "رأيت الله" و "الفارس المهزوم" إضافة لعدد من الأعمال الشعرية".

رواية
....
الضريح
كرم صابر
الطبعة الأولى ديسمبر 2010
رقم الايداع : 20902 - 2010

الناشر
محمد البعلي

المستشار الفني
أحمد الزغبي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
٥ ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

الضريح

المحتويات

الإهداء...

إلى "مينا ملاك"، و"أحمد صبحي"، و"زعبولا"، و"إبراهيم بليلة"، والقس "فايز"، و"أبو عيشة"، والشيخ "محمود عتابي"، والأب "بيشوي"..

الذين عاشوا وماتوا دفاعًا عن الضمير.

القسم الأول

التكوين

الحكايات تملأ البلدة عن طائر الموت الذي نزل بالجرن وخطف «سعدية بنت حسانين» وطار بها وسط ذهول الحاضرين، أطلق «محيسن العربي» أعيرته النارية ليوقف الغدر، فعاد الرصاص إلى صدره ومات، صرخت زوجة «العربي»: مالنا إحنا ومال سعدية يا خوي.. أهو قتلك يا ضناي.

كفّن الناس جثته، ورفعوا روحه وجسده فوق رؤوسهم، وبكت النساء عليه؛ لأن حامي البلدة من اللصوص مات غدرًا، قال الشيخ: من يتدخل في مشيئته سيلقى حتفه، يجب تقبل حكمته وقسمته دون اعتراض.

كانت البلدة في هذه الأيام تمرح بذكر الله حول ضريح «سيدي عبد العزيز»، ويتبارك الناس به، ويطالبونه بالصفح عن ذنوبهم، ويناشدونه بإنزال بركاته؛ لتخرج بذرة ثمار البطاطا، وتلد الأبقار عجولها الطيبة، وتتزين النساء برحيق أشجاره، وتمتلئ السماء بقوة وعزيمة الحب الذي لن ينضب أبدًا.

منذ اختطاف «سعدية» انتشرت العفاريت بملابسها السوداء وعيونها المغلولة في الحواري والشوارع ليلاً لقتل أخوات «سعدية»، كنا نختبئ منهم خلف مقهى «السيد» حتى لا يخطفونا، وتقذفهم «جمالات» الشقية بالطوب وتختفي خلف سور الجامع وننادي عليها حتى لا يلمحوها.

كانت عيونهم تبحث عنا، فنختفي خلف الأشجار، فيطيروا بعيدًا دون أن يخطفوا أحدًا.

وفي يوم صنع «زعبولا» شبكة من السلك المقوّس وملأها مسامير، حتى إذا نزل طائر الموت أو العفاريت أغلقنا الفخ والشبكة عليهم وحبسناهم؛ حتى لا يخيفونا مرة أخرى، وحين مرت العفاريت أغلقنا فخ الشبكة وحبسنا ثلاثة منهم، وتحول أحدهم إلى فأرٍ، والآخر لقطٍ، والثالث لأرنبٍ أسود، وذهبنا للمقهى مبتهجين بصيدنا الثمين.

كان شيخ الجامع، و«فاين» القسيس مشغولين بلعب «الدومينو»، وصرخنا فيهما: حبسنا العفاريت بالشبكة. ضحكا عن آخرهما وقالا، بعد أن فكا الشبكة وأطلقا القط وأرنب صديقة بتاعة الطعمية وقتلا الفأر: يا ولاد الكلب ما عفريت إلا بني آدم.

ولكننا، نحن الذين شاهدنا بأم أعيننا طائر الموت يخطف البنات والخلق منهولة، والذي حاول منهم أن ينقذها فجِّر صدره وسُرقت روحه، نحن الذين سمعنا شيخ الجامع في اليوم التالي يحكي على مصطبة الكنيسة لـ«فاين» القسيس عن القوة الخارقة لطائر الموت، وكيف يمكنه حمل بلدة بأكملها والطير بها وتفجيرها في السماء في غفلة من الزمن.

قال القس: إن طائر الموت لا يمكنه أن يفعل ذلك إلا بوشاية أحد الأهالي، وقال «أبوعيشة» خادم الضريح: إن بركات - ولي الله - سوف تحمينا طوال العمر، وإن رائحة أشجاره تمنع الشر والأذى من الفتك بالبلدة.

وأثناء استمتاعنا بحكاياتهم قذفتنا «أمينة بنت حمدان» الطيب بـ«زلطة» أصابت عين «سالم» فنزف الدم منه وبكى. حاول «زعبولا» أن يمسك بها ولطمها على خدها حتى لا تؤذي أحدًا مرة ثانية. وبالرغم من أن «مينا» كان يحاول أن يمنع الدم النازف من عين «سالم»، فإن «القس فاين» جرى وراءه وصرخ فيه: اخس عليك يا فاسق. لأنه تصور أن «مينا» ضرب «أمينة» وأخذها القس في حضنه، وحاول الشيخ تهدئتها ليعودا لاستكمال حكاية طائر الموت والضريح، إلا أن الشمس قاربت على الغروب وحان موعد أذان المغرب، فاستأذن الشيخ من القس وقال: لا أعرف متى سيتركنا الناس في حالنا لنستمتع مثلهم بالحياة؟!

وفي يوم لم ننسَ رياحه العاتية، وأثناء جمعنا فضلات الخشب من ورشة والد «مينا»، لنصنع بيتًا مشتركًا لله، وحين قاربنا على الانتهاء من صنعه ولم نعمل حسابًا للسقف ولا الشبابيك والأبواب، قالت «جمالات» الشقية: يجب أن نترك بيوت الله مفتوحة حتى ندخلها أو نخرج منها ونلعب فيها «الاستغماية» و«العسكر والحرامية» دون أن يمسكنا أحدٌ، فاجأتنا عاصفة قوية، فهدمت بيت الله وأعمى التراب أعيننا.

قال «زعبولا» الذي جرى خوفًا من شدة الريح وهو يشير ناحية الغرب: الشيطان يا عيال اجروا، اختبئوا.. لكن «جمالات» فوجئت بـ«أمنا الغولة» تمسك بيديها وتضع مسمارين بقدميها وتمنعها من الجري، كانت تختبئ بالريح، فهدمت بيت الله الذي كتبنا على بابه بفضلات الأخشاب: «منزل جمالات للعبادة». صرخت «جمالات» مغُلقة العينين مستغيثة بنا بعد أن رمت «أمنا الغولة» في عينيها حفنة تراب. ولولا أن «أم عويس» لحقتها، لكانت «أمنا الغولة» قد خطفت «جمالات» وفقدت بلدتنا في عام واحد، بسبب طائر الموت وأمنا الغولة، أجمل بنات البلدة.

أمسك عمي «إبراهيم بليلة» بوجهه المشع بياضًا ونورًا عصاته ووقف وسط الشارع الرئيسي الذي يقسم البلدة، وصرخ بالشيطان ليرحل فهدأت الرياح وسقطت الأمطار لتغسل التراب الذي انتشر فوق الملابس والبيوت والمواشي، واحتفلت البلدة في نهاية اليوم برضاء السماء علينا.

تقابلنا عشرة أطفال عند ساقية عمي «غنيم»، نستمتع بالمياه ونتزحلق في الشوارع لتبتل ملابسنا وأجسامنا بالوحل، ونزلنا على حائط الساقية لنغتسل، كانت الجنيّة تنتظرنا عند مدخل الساقية، وحين نزل «أحمد صبحي» على الحائط الذي يفصل جانبي الساقية، سحبته

من ملابسه لقاع الساقية، فصرخنا واجتمع الناس وجاء شيخ الجامع و«فايز» القسيس وعمي «إبراهيم بليلة»، وطلبوا من «علي الغواص» أن ينزل لقاع الساقية ويبحث عن صديقنا، قال بعد ثلاث ساعات وبعد أن أعياه البحث: لا يوجد إلا الأسماك، ولابد أن الجِنيّة أخفته في كهفها، كان «أحمد» أجمل الأطفال، لن أنسى أبدًا شعره الأصفر، وعينيه العسليتين، وطريقته الهادئة في الكلام والمشي، كان يحبنا جميعًا.

قلت لـ«سالم» و«زعبولا» و«عمر» و«مينا» أصدقائي: لو أن عمي «إبراهيم بليلة»، مؤذن الجامع، موجودٌ معنا لخافت الجِنيّة وتركت «أحمد» ولم تتمكن من خطفه.

بكى «مينا» وقال: إن الملائكة حزينة علينا، فبالأمس طاروا فوقنا ليواسونا، وقالوا بصوتٍ حنون: البقاءُ لله يا أطفالي المساكين.. قال «عمر»: لماذا يترك الله الأشرار يخطفون الأطفال؟.. أكد «زعبولا» أن الملاك الطيب استطاع أن يهزم في النهاية «أمنا الغولة» والجن الأزرق والشياطين، وأن يطردهم للعوالم الأخرى، ولم يتمكنوا من العودة للعيش معنا مرة أخرى، لأنهم ارتكبوا في الماضي خطايا لم يغفرها لهم الله، فبعد أن تجرؤوا عليه وطعنوه وسخروا منه، وقالوا له: أنت في سمائك تملك كل شيء، لكننا هنا على الأرض نتحكم بمصير الناس.

تحايل الأشرار والشياطين على الملائكة والأخيار وخطفوا منهم مفتاح الحياة الذي مكنهم من التحكم بمصيرنا، لكن الرب الطيب جمع جيشًا كبيرًا من الناس الأخيار والملائكة الطيبين، واستطاع أن يهزمهم ويسترد مفتاح الحياة مرة أخرى، وخرجوا عن نطاق رؤيتنا ولم يظهروا بعد ذلك إلا مع حلول الظلام. لذلك؛ كان «زعبولا» يشعل النار دائمًا إذا شعر بالشر يقترب، كانوا يخافون منه لأن ملاك الرب الطيب لم يتركهم أبدًا.

أذهلنا «أبورواش» ابن عائلة «السلمانية» من طرقه الخبيثة لهدم بيوتنا وحقولنا التي كنا نرسمها على أرضية الحارة.. كان يتفنن في صنع آلات الشر مثل النبلة والثعلبة ليخيفنا، لكن «زعبولا» كان يضربه بقوة ويطرده من الحارة.

كان يجلس بعيدًا عنا آخر الليل يفكر مع الشيطان في مجرى جديد ليهدم ما بنيناه طوال النهار، كانت «جمالات» الشقية الطيبة تشفق عليه وتقول له: ستلعب معنا ولكن لا تؤذي أحدًا كي تدخل قلوبنا. كان ينظر إليها ويقول في صمت: غدًا سأسرق أحلامكم وورد جناتكم وأنزع منه رائحتكم.. تتركه «جمالات» وتعود إلينا وتقول: لا تقسو عليه يا «مينا».

كانت الدنيا ملك قلوبنا، ورغم صغر سننا لم نعجز أبدًا عن فهم ما يجري حولنا في الحقول والمراوي والبيوت، لم يمنعنا ارتفاع السماء من مشاهدة قصر الله الكبير المحاط بملايين الملائكة يخضعون لأمره ويتلفحون بالبياض ويشع من وجوههم نور يعبر عن المحبة.

كان قصر الرب فوق السماء نظيفًا ويمتلئ بكل الخيرات والفاكهة، لم يكن الرب وملائكته ينامون ويحتفلون دائمًا بالأعياد، اللهم إذا وقعت مصيبة على الأرض بسبب الشياطين، فإن الله يواسينا على ما ألم بنا.

كنا نعلم أن الشياطين والجن الأزرق الذين لا تراهم عيوننا يعيشون معنا، نحس بهم كلما وقعت مصيبة بالبلدة.

واستطاع الشيطان الأسود في هذا اليوم أن يسيطر على سماء البلدة، وأجبر العم «سيد» على ذبح «حنوس» ابن أخيه عند قهوة «حسن الجحش» حين أوشى الشيطان له بمعاشرة زوجته، وحين عاد من عمله بحث عن بلطته، وسألته زوجته: عايز البلطة ليه يا سيد؟

قال: سوف أقتل عشيقك «حنوس» لأحرق قلبك.. وناولها في وجهها بكف يديه فوقعت على الأرض، استغاثت بالناس ليقصر الشر، إلا أنه داس على فمها بقدمه وقال لها: لن أقتلك يا فاجرة حتى تشاهدي دمه ورأسه ولسانه المقطوع، الذي كان يلحس به أفخاذك، ملقيين بزريبة المواشي. وتركها كالمجنون ذاهبًا لقهوة «الجحش»، وحين قابله «حنوس» ابن أخيه عاونه الشيطان على رفع يديه بالبلطة ليقطع رأسه في توحش، ولم يكتفِ الشيطان بفعلته، بل أجبر «سيد» بتشويه رأس ابن أخيه، وقطع لسانه وعضوه الذكري، وذهب عاريًا لمنزله وخلطهما بروث البهائم بالزريبة، وربط زوجته بأحد أعمدة المنزل لتشاهد توحشه، وبعد أن توسع مجرى الشر داخله أمسك السكين وقطع رقبة «هنية» زوجته، حين جاء العساكر ليقبضوا عليه، قاتلهم حتى مات.

كنا على يقين بأن الجن الأزرق الذين طُردوا من الجنة، بعد أن فُقد الأملُ في إصلاحهم، امتلكوا قوة سحرية زائفة هي مصدر الشر الذي بدأ يزيد يومًا بعد يوم بالبلدة، بعد أن تركنا طفولتنا وبراءة عيوننا في حصالة البيت العائلية وخرجنا لملاقاة أقدارنا في العالم الواسع.

التحول

كان «سعدة» الشاب اليافع يصحو كباقي الفلاحين مع شروق الشمس؛ باحثًا عن الرزق المنتشر في أنحاء الأرض. لم يهتم كثيرًا بالغل والحقد الذي ورثه عن أبيه بسبب مشاجراته مع جيرانه أبناء عائلة «الزهرانة» الأشرار، بعد أن هيأ لهم الشيطان أن جبروتهم وقوتهم يمكن أن تزلزل الأرض، فقاموا غدرًا بوضع رأس «أبوسعدة» في وِحل الترعة.

كان صوت عمي «إبراهيم بليلة»، موّذن الجامع، ينقذه من الموت حين يصرخ في الشيطان الذي استغل جهلهم وضعفهم، وصوَّر لهم أنه بإمكانهم أن يملكوا الأرض بتوحشهم، مع أنهم لو نظروا مرة واحدة لبيت الله بعد السماوات وأحسوا بسفينة المورد والرزق الذي يلقي به الله كل يوم في الصباح على الناس؛ ليزرعوا الأرض ويحصدوا الخير، لارتدعوا ولم يستسلموا لظلم أنفسهم، وتركوا «أبوسعدة» حيًا.. حين كان يصرخ «إبراهيم بليلة» فيهم: «عيب يا واد ارجع»، كانت أيديهم المربوطة برقبة «أبوسعدة» تنحل؛ لأن «بركات» عم «إبراهيم»، وكلامه أوامر يجب أن تطاع.

كانت الناس تتداول هذه القصة، فيمتلئ قلب «سعدة» بالغيظ والغل، ويتمنى في هذا الوقت أن يقابلهم؛ ليفصل رقابهم عن أجسامهم. ومع ذلك، فحين يشاهد شروق الشمس، وهو يمشي وراء الجمل ويسحب الجاموستين، يمتلئ قلبه بالحب مرة أخرى، ويقول: تقتلهم إيه يا واد دول أهالينا.

يطبطب عليه «إبراهيم بليلة» حين يقابله ويحضنه، ويقول له: «المهم أن تنتج أرضك أفضل المحاصيل؛ ليأكلها الناس ويدعوا لك».. «يا سعدة إتلاف وتقليع الشجر وتبوير الأرض يتم في لحظة، بينما زراعته وحصاد الثمار الطيبة يستغرق شهورًا».

في الأيام الأخيرة التي لم نشاهد «سعدة» يستقبل شروق الشمس، كنا نعرف أن مصيبةً جديدة سوف تحل على البلدة، كنا نعلم أن الشيطان لو دخل قلبه لن يستطيع أحدٌ إخراجه قبل أن تنهار الدماء في الشوارع. وبالفعل، فقد شاهدناه عند الضحى عاريًا ويتدلى قضيبه وأردافه في بجاحة لم تعتدها بلدتنا، ويمسك سكينًا كبيرًا، ويقول لكل من يقابله: سوف أذبحهم اليوم. ومشى عاريًا من أمام منزله مارًا بكل حواري وشوارع البلدة؛ ليعلن للجميع أنه سيذبح جيرانه الذين أهانوا أباه في يوم ما، والناس تحاول أن تعيده لرشده، لكنه يرفض توسلاتهم ويهددهم إذا اقتربوا بقطع رؤوسهم.

صرخت أمه وهي تجري وراءه: يا ابني حرام عليك ده أنت أكبر إخواتك.. يا ابني وحل إيه اللي حطوا راسك فيه أنت وأبوك.. يا بني ارجع.

كان يشتمها بأقذع الشتائم لتعود، ولم يتمكن ملاكها الطيب من إعادته، فصرخت: فينك يا شيخ إبراهيم تحوش المجنون اللي هيودي نفسه في داهيه.

وصل «سعدة» لأراضي جيرانه، أبناء عائلة «الزهرانة»، وكانوا قد علموا بخبر خروجه عاريًا لأخذ ثأر أبيه، فاستعدوا لقتله. كان النسر الذي عاد كإلهٍ للشر قد ركب دماغه وتهيأ له أنه سوف يقتلهم جميعًا بسكينه ويتفادى رصاص بنادقهم، ولولا صرخة أم «سعدة» ليلحق «إبراهيم بليلة» بابنها في اللحظة الأخيرة، لكنا فقدنا شابًا كان يبهج القلب ببشرته الرائعة المملوءة ببراءة وهو يضحك ويتلقى رزقه الصباحي مع شروق الشمس.

والشيء المؤسف أن عائلة «الزهرانة» الجبابرة الذين أهانوا «أبوسعدة» لم يتركوا الحادث يمر، فقد اتهموا «سعدة» بأنه أتلف زراعاتهم وجرح بعضهم، وذهبوا للعمدة بشهود وأدلة، كان أهمها

سكينه الكبير الذي كان يحمله، وسحبوه عاريًا كما ولدته أمه للسلاحليك؛ ليحبس ثلاث سنوات ليعود إلينا شخصًا آخر فقد البراءة ومعرفة ملامحنا وأسمائنا.

تحولت البلدة التي نست أيامها الأولى وغرقت بالوحل، وفقدت ذكرى الرجال الأوائل ورفضت استلهام مجدهم وحبهم وعشقهم للحياة، هؤلاء الأجداد الذين رفضوا أن يتركونا ودُفنوا وسط منازلنا، وأوقفوا ما يملكون للاحتفال بموتهم وميلادهم في الأعياد وليالي المولد الكبيرة التي كانت البلدة تقيمها حول أضرحتهم كلما أمطرت السماء أو توقفت أفعال الشياطين، كانت بيوت أولياء الله تملأ الحواري، ومحاطة بأشجار الشمام وذقن الجن والورد الأبيض، ليخرجوا مساء كل يوم من أضرحتهم، ويعيشوا معنا، ويبتهجوا بنا، ويمنعوا عنا الأذى والشر.

كانت أيام البراءة بالبلدة تتلاشى ببطء بعد كل حادثة تمر، لكننا لم نتصور أبدًا أن يظهر من بيننا أبناء رجال يتركون لحاهم لإرهابنا، ويخيفون الأطفال بدعوى أنهم يَمْثلون للرب وجبروته وناره، وتاه الناس بعد أن عاد «كليب»، الذي كان أبوه قد أرسله ليتعلم بمدرسة الأمل في المدينة القريبة، مطلقًا لحيته ويلبس جلبابًا قصيرًا مثل الأراجوز ويهددنا بقوة الرب وتوحشه.

كنا لا نصدق تهديداته وتخاريفه؛ لأننا لم نتصور أبدًا أن الرب، الذي يسكن بعد سبع سماوات وسط الحدائق المملوءة فاكهة وعنبًا ويشع وجهه نورًا، يمكن أن يتحول لشرير كل أمله أن يحوّل البشر لقطعان شيطانية يفجرها بالجحيم، لتلتهم «أمنا الغولة» عظامهم لرفضهم لبس الحجاب، أو إطلاق اللحية، أو الركوع الصوري للتظاهر بالإيمان.

لم نكن نتصور أبدًا أن الله الجميل، الذي لم يعرف أبدًا الكره والغل والحقد والأذى، يمكن أن يتحوّل لشيطان كما صوره «كليب».

لكن «مينا» قال إنه سمع من الأب «بيشوي»، يوم أمس، أن الرب راهن بقوة علىٰ الحب الذي زرعه بين البشر، وملأه الغرور بقدرته على محو الغل والحقد والشر بألوان ورائحة ورد جناته، ولما خالف البشر وصاياه وتعاليمه، ومسحوا بميثاق الأخلاق الذي زرعه بداخلهم برازهم، ترك الدنيا وانعزل بالسماء السابعة، ومن وقتها والشيطان يعبث بحياتنا ويتحكم بمصيرنا.. وهرب الملائكة الطيبون مع الرب بعد أن فزعوا من شر البشر حين شاهدوا «سعدة» يلقي باللبن في وحل البهائم بعد أن تشاجر مع أمه وخرج عاريًا ليقاتل أبناء عائلة «الزهرانة»، وأكد أن روايات «كليب»، عن توحش الرب وناره وكرهه لعباده، يمكن أن تكون حقيقة إذا فقدنا الإيمان بالحب.

لكنني أبدًا لم أصدق تلك الحكايات وكنت أعتقد أن «كليب» يؤلف هذه الحكايات مع الشياطين في زوايا الشر التي كانت تجري بداخله ويرثه عن عائلته، التي طالما كانت مصدرًا لكل المصائب التي مرت بها بلدتنا.

وحين علمنا أنه هرب لبلاد بعيدة؛ ليحارب مع المسلمين ضد الكفار ويجاهد في سبيل الله ويدافع عن الحق، كنا ننظر إلى بعضنا ونقول: أيُ حقٍ يمكن أن يدعمه هذا الشرير، إنه لا يملك سوى الترويج لنار الله وجبروته.. هل هذا الحق الذي يمكن أن ندفع حياتنا ثمنًا له؟!

ورغم ذلك كنا نحس وقتها بأن همًا كبيرًا انزاح عن قلوب البلدة؛ لأننا لم نعد نسمع انتقاد سعادتنا وبهجتنا التي كانت هي الباقية لنا في ظل انتشار أصحاب اللحى، وبناء قسم جديد للشرطة تمر عرباته بصوتها المزعج مع شروق الشمس كل يوم، فيهرب الناس كالسحالي؛ خوفًا من مداهمتهم وهم يبتهجون.

الانحطاط

بنى العسكر والضباط عند مدخل البلدة مبنى كبيرًا، وصنعوا القيود والأبواب الحديدية على مداخله الكثيرة، وأقاموا فيه بعد أن مات عمدة وشيوخ البلد.

بعد انتشار العسكر خيّم الحزن على الناس الذين عاشوا عمرهم يستقبلون الحب والرزق مع شروق الشمس، ولم يعرفوا إلا «سيد» المخبر كرمز للسلطة، لكن أن يأتي مئات العساكر والضباط ويستوطنوا بمدخل البلدة ويقيموا الأبراج العالية حول مداخلها المختلفة؛ ليراقبوا خروج أنفاسنا من قلوبنا، ويكتبوا التقارير عن عددها وصوتها، فلا جدال أن البلدة تحولت لسجنٍ كبير.

بحث الضباط عن أبناء القهوجية والسماسرة، وشكلوا منهم فرقةً للتلصص على البلدة، لا ينسى الناس كيف قام «رضا» المرشد بقتل «حسانين زليخة»، كي تتهم الشرطة بلدة بأكملها في جريمة تعلم أن مدبرها ومنفذها أحد رجالها، وقد وجدته الشرطة مقتولاً بالترعة الكبيرة، ولم يهتم أحدٌ بإخراج جثته التي تعفنت، إلا بعد أن جاء البوليس واتّهِم الجميع بمقتله.

حققت الشرطة الجديدة مع الأهالي وفتحوا لهم ملفات وصنفوهم كـ«مسجلين خطر» بقضايا الإرهاب والمخدرات والسرقة والنشل والتسول والدعارة والسلاح، وتحولت جموع الناس التي كانت تنعم بالأمان إلى مجرمين ومطاردين.

قالت أمي في هذا اليوم: لم يتمكنوا من ذلك لولا أن «سيد» المخبر ساعدهم في اقتفاء الأثر، لأنه الوحيد الذي كان بيننا ويعرف مهنة كل واحد فينا، وأين يقضي باقي يومه.

أكد «مينا» صديقي حين قابلته، بعد أن أخذوا أباه وأعمامه كمتهمين وأفرجوا عنهم بعد عدة أسابيع، أن وجود «سيد» المخبر بيننا لم يكن

كافيًا ليقوموا باغتيال وحصار بلدتنا. إن الغل والحقد الذي كانت تزرعه «أمنا الغولة» و«أبو النطيط» و«الجن الأزرق» بقلوب الأهالي، وتركنا لأحفاد الشياطين؛ ليستوطنوا عامًا بعد عام على مداخل البيوت ويهيمنوا علينا ويفسدوا أرواحنا الطيبة؛ لنتبع شرهم، أدى لانحطاطنا وتحولنا لآلاتٍ صماء تردد كلام المآذن الجديدة والأبراج العالية التي تملأ قلوبنا بالحزن كل يوم. كل هذا سهّل مهمة القبض على الأهالي، وفتح ملفاتٍ لكل واحدٍ فينا، وتصنيفنا حسب الإجرام والشر والـ«مسجلين خطر».

الوحيد الذي كان يشارك ويفهم مجرى وتطورات الأحداث هو «أبورواش» صاحب الجمعية الجديدة، ففتح هو الآخر سجلات أخرى لجمع أسرار بيوتنا، وحوّل أسماءنا لأرقام؛ لملء ملفات جمعيته بأحلام مئات المحتاجين والضحايا في خدعة كبيرة بأنه سوف يحققها لهم، وبنى مقرًا كبيرًا بجوار القسم ليتداول معهم المعلومات لاغتيال طموحات الأهالي، ثم تزوج «جمالات» التي كانت أجمل بنات البلدة، والتي لولا رقة «أم السعد»، يوم الرياح العاتية، لكان الجن قد خطفها وأفقدنا أجمل بنت رُزقت بها قريتنا.

كيف تركه الأهالي يخطف هذه البنت الطاهرة وهم مسلوبو الإرادة وتساءلوا بعد ذلك لماذا عاملتهم الشرطة بهذا الانحطاط؟

أكد «زعبولا»، صديقي، أنّ قسم الشرطة لم يتمكن من تحويلنا جميعًا لمتهمين وخارجين عن القانون، لو لم نترك «أبورواش» يعربد وسطنا بدعوى مقاومة الفقر والجهل والمرض ثم يحضر الجميع مأتم زواجه من «جمالات».

قالت أمي: إن «جمالات» أصيبت بالصرع بعد أن منعها «أبورواش» من النزول إلى الشارع والسوق والاختلاط بالناس، وأستأجر لها امرأة

عجوزًا لتنظف لها البيت وتشتري لها الخضار، فذبلت وجفت شفتاها اللتان كانتا تخرجان رحيقًا وعسلاً بعد أن امتصه طمع «أبورواش».

قالت «أم عويس»، في اليوم الذي نزلت «جمالات» السوق لتشتري الخضار بنفسها: ضربها وكسر لها ضلعًا وقال لها إن الرب خلق النساء بضلع أعوج.. وأنه طلب منه إصلاح هذا الاعوجاج.. وكان يشتمها في الصباح والمساء ويلطخ وجهها بنظراته البائسة بعد أن حولته الجمعية إلى شيطان كل همه جمع وسرقة الأموال باسم المحتاجين.

بعد سنين عرفنا أن «جمالات» دخلت المصحة النفسية بالعباسية بعد أن تزوج «أبورواش» عليها، لأنها جاهلة لا تناسب نفوذه الذي ازداد وسط الضباط وعلية القوم، قال الناس الملازمون له وللشيطان الذي استوطن داخله: إنك تحتاج لبنت متعلمة تقدر طموحك.

وحين نهره «إبراهيم بليلة» في أيامه الأخيرة حتى لا يتزوج على «جمالات» قال: إن الله لم يحرِّم الزواجِ وزوجتي تحتقرني، سأتزوج عليها لأكسر عينها وأصلح اعوجاجها.

لم يكن هناك سوى «أمينة» بنت «حمدان» التي تناسبه، وكانت حاصلة على دبلوم وتلبس حجابًا محتشمًا، لكن الجميع يعلم أن أوشة عينيها تدل على فُجرها، وعرفنا بعد ذلك أنها سرقت منه مبلغًا ماليًا كبيرًا وفتحت جمعية أخرى للنساء المسلمات، وأصبحت تنافسه في جمع المال وسرقته.

قال «مينا» إن «أمينة»، التي ضربها يومًا ما بخشبة في رأسها لأنها حاولت هدم منزل «جمالات» للعبادة الذي صنعناه من بقايا أخشاب ورشة والده ملاك، ودافع عنها شيخ الجامع «وفايز» القسيس وجريا وراءنا ليعاقبانا واحتضناها ليزرعا داخل روحها الحب، لم تبكِ يومها وهي المحضونة بقلب القسيس، ونظرت بغلٍ إلينا، وحلفت بأنها يومًا ما ستحرمنا البهجة وتهدم منزل «جمالات».


البر

اختفت الليالي الكبيرة والاحتفالات بالمولد التي كنا نستمد منها الأمل والحب، وهدَّ التعب «أبوعيشة»، المسؤول عن خدمة الضريح، الذي كان يعد الأكل والشرب للمريدين والمحتاجين من أهالي البلدة، ويذهب في المواسم بالعشيان واللحوم في الخفاء لبيوت الأهل الذين لم يتمكنوا من شراء اللحوم، كان يعرفهم جميعًا وينتظرونه.

كان عمي «إبراهيم بليلة» والقس «فايز» و«أبوعيشة» يجلسون يتسامرون معًا كل يوم، يتعرفون مع بعضهم على احتياجات البلدة، ويمنعون الحقد والشر من دخول المنازل، كان جهادهم من أجل سمو الحب النابع من الضريح الذي اصطفاهم بخدمته ليحلق بسماء البلدة، كنا نقول لأنفسنا حين نشاهدهم يتسامرون آخر الليل: «إنهم يستحقون خدمته».

أتذكر يوم أن صرخت «نصرة» في السماء ونادت الله في ملكوته ليرحمها من الذل والعجز، فوجئنا بعمي «إبراهيم» و«أبوعيشة» وفايز القس يحيطون بها ويسلمونها مبلغ خمسين جنيهًا كانت تكفي لشراء نصف فدان أرضًا وقتها، وكانت تكفي لإطعامها وابنها العاجز ثلاث سنين متواصلة.

قالوا لها: إن السماء السبع اهتزت وضجت الملائكة من صراخها وأفزع ذلك رب العالمين بعد أن توسل إليه الشيخ ليرحم عجزها، فأرسل لها هذا المبلغ لتعالج ابنها وتؤمن برحمته.

في هذا اليوم لم يتمكن الشيطان من استكمال مهمته لأن «نصرة» كانت تنوي قتل ابنها التي زهقت من خدمته، لكن الملاك الطيب الملازم لـ«مينا» قد لبى طلبها وأرسل لمخدومة «أبوعيشة» المبلغ ليمنع مصيبة جديدة كانت ستلحق ببلدتنا.

كانت جلسات السمر والذكر كل أسبوعين بين الأتقياء في البلدة

حول الضريح تكفي لأن تنعم البلدة بحب ظل حتى اليوم ينير حواريها المظلمة ويطعم فقراءها ويهب للمحرومين أنهارًا من الورد والاطمئنان والرضا بأرواحهم.

لم يخدعهم انتشار الشياطين ورجسهم، بعد أن ملأوا بيوت الله بـ«السجاجيد» المزينة بألوان الإيمان الجديد الذي روّج له الشيوخ، وملأوا بـ«الخيش» بيوت الله أو أزعجت صرخات أصواتهم، التي ارتفعت بالمآذن والزوايا بكل حارة بالبلدة، النائمين وحرمت «الشقيانين» من النوم في الفجر.

حين سمع عمي «إبراهيم بليلة»، مؤذن المسجد الوحيد بالزمن القديم، أذان العصر يخرج من عشرات المساجد والزوايا مرة واحدة ليزعج الناس وينفرهم من حب الله، قال: قبل دخول الميكرفونات كان صوتي الجهوري يصل للبلاد الأخرى فيقوموا للصلاة كي يتطهروا، هذه المآذن تذكرني بعهد الكفر الذي كانوا يهتمون بتنظيف ملابسهم ويتركون أرواحهم مملوءة قذارة. وقال في النهاية: «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير».

أما «أبوعيشة»، خادم الضريح، فقال: لماذا يبنون كل هذه الزوايا؟.. إن مآذنهم العالية كأصنام الكفر لا تنفع ولا تضر، كنا بمجالس الذكر نعرف المحتاج ونمد يد العون له، وننشر الحب والإخاء فتختفي المشاكل بين الأهل والجيران دون مآذن مرتفعة أو زوايا، إن مجالس الذكر كانت تفيض على البلدة كل يوم بأنهار من المحبة جعلت هذه البلدة تستمر آلاف السنين رغم انتشار الشياطين دون أن يمسها شر أو تفقد بكارتها.

ومع ذلك ظلت أصوات المآذن تزداد كل يوم وتعلن عن مواقيت الصلاة دون أن يتابع أحد ما يجري في هذه البيوت الكثيرة للرب،

لكن «أبورواش» يعرف أسرار هذه البيوت بعد تحوله لإمام مسجد «الزهرانة» يعلّم الناس الإيمان الجديد حين كان يسمعه «مينا» يخطب بالناس يقول: إن فمه مملوء بالذباب، لن يخرج منه إلا روائح نتنة، فنحن جميعًا لم ننس حيلته لهدم بيوت الله التي كنا بنيناها بفضلات أخشاب ورشة «ملاك» والد «مينا»، وتوعده لـ«جمالات» بسرقة أحلامنا، ومع ذلك كانت الناس تأمل فيه الخير، فبعد أن ترك الزراعة وباع أرض أخواته لم يجد عملاً، فتعرف من «أبوعيشة» خادم الضريح على مشاكل الأهل في الحواري وتقرب منهم وكسب ثقتهم وسلمه نحو مائتين منهم استمارات مملوءة بأحلامهم ليحققها لهم، قال لهم: «بعد أن أستولي على الاستمارات والأحلام، سنؤسس جمعية لمساعدة الفقراء ونشر البر»، وتقاضى من كل واحد فيهم نصف جنيه شهريًا، ورغم ذلك كان يذهب مع «سيد» المخبر لتاجر الأراضي ليأخذ مرة أخرى الاشتراكات الشهرية للأعضاء الفقراء الذين تجاوز عددهم بعد ذلك خمسمائة مواطن.

حفظ «أبورواش» أسماءهم ووضع طموحاتهم داخل ملفات وأعطى لكل واحد فيهم رقمًا وجمع بأسمائهم المنح والعطايا والمساعدات.

وحين توسعت جمعية البر الجديدة، اقترح عليه المخبر أن يبني فوق مسجد الزهرانة دورًا كاملاً ليكون مقرًا جديدًا للجمعية لتنهب لعشرات السنين الأموال باسم القضاء على الفقر، ومع ذلك تزايد الجوعى والعاطلون والأرامل بالبلدة دون أن نفهم أبدًا تلك العلاقة التي تربط بين جمعية «أبورواش» و«سيد» المخبر وازدياد الفقراء والزوايا بالبلدة.

والشيء العجيب أن زوجته الثانية «أمينة» اتخذت من نفس الجامع الذي كان يدير منه الأموال الممنوحة لجمعية البر مقرًا لها، واعتمدت على نفس استمارات الفقراء ونسخت منها ملفات لجمعيتها، وعلمنا بعد ذلك أن أجهزة حكومية بمساعدة «سيد» المخبر قد تعاونت معها،

وترغب في تصعيدها لحكم البلدة، وأفهمها «سيد» المخبر، وكان ثالثهما الشيطان، أن الدنيا تغيرت وأن للأمن أجهزة سرية أخرى تدير البلد، وأنهم اختِاروها لتكون ضمن مبعوثيها الجدد لمنصب كبير سوف يذهل أهل البلدة حين تعتليه، بل إن زوجها «أبورواش» نفسه لن يستطيع أن يرفع صوته عليها حتى لو أجمع الأئمة والشيوخ كل يوم على قوامته عليها، لأن الأمن السري يتحكم في قراراتهم، وطلبوا منه أن يبلغها بترشيحها لهذا المنصب الكبير.

انبهرت المرأة التي لم تكن تحلم في يوم بأكثر من عشيق أفضل من «سيد» يعطيها الأمان والحب، وقالت له في اندهاش: معقول يا سيد؟.. لكن «سيد»، الذي كان يملأ جيبه بحبوب «الفياجرا»، لم يرد عليها وخلع ملابسه وطلب منها أن تصب لهما كأسين من الخمر المعتق الذي أهداه له «عمر» أخو «جمالات» (ضرتها) بعد أن عاد من السفر، فقامت على الفور ولبست قميصها الأحمر الذي يظهر ثدييها كاملين وفتحت «التسجيل» لتغني امرأة ورجل في خلاعة، وتركت «سيد» المخبر يحتفل بقدرته السرية على معاشرتها عارية، ليرفعها هناك بين الأكابر لتستمتع بكبيرهم وتنعم بالعز الذي طالما حلمت به حين تزوجت «أبورواش» الكئيب.

وتتحول البنت اللعوب الحقودة «أمينة» لامرأة ذات نفوذ عظيم بعد أن رافقت الشيطان، وكان ثالثهما «سيد» المخبر بفضل جمعية البر.. ولن يتصور أحد من أهالي البلدة كيف لـ«أمينة» الحقودة الفاشلة اللعوب أن تتحكم بعد ذلك في مصائر الرجال!!.

الجنون

في الوقت الذي كانت «أمينة» تستمع بفجر «سيد» المخبر ويلازمهما الشيطان وملاك الجسد الملعون بشقتها الجديدة خارج البلدة، كانت «جمالات» الشقية تقف ببلكونة منزل «أبورواش»، زوجها، تنتظر عودة أخيها «عمر» لينتشلها من براثين الغل المنتشرة ببيت «أبورواش»، عزم «مينا وسالم وزعبولا» بعد عودة «عمر» أخيها من بلاد الخليج بتخليصها من هذا الكافر الذي يدعى زوجها.

كان «عمر» قد حكى لأصدقائه كيف كان «أبورواش» يضربها ويعذبها أثناء سفره وأدت معاملته السيئة إلى فقدانها العقل والهوية.. قال: أنتم تعرفون أختي وكيف كانت تعيش كأميرة في بيتنا.. أهانها المجرم وعزمت بعد عودتي للبلدة أن تعود «جمالات» لبيتها، لم يتردد أصدقاؤه في استرجاع حق أخته الضائع.

حين لمحتنا «جمالات» تحت سقف البلكونة غنت بصوتها العذب، أذهلنا هدوء ألحانها وذكرتنا بطفولتنا حينما كانت تحذرنا من الشيطان، كانت تقول: لما يكون فيه حول البيت كلاب لازم نعدي ونجري.. إوعاك يا «مينا» تقع ولا تغادر المسافة بين ضلوعي وحبك.. خلوني أموت من الشوق.

نادى «عمر» عليها لتنزل فأرسلت ابنها الصغير «أيمن» وفتح الباب لخاله واحتضنه وعرفنا أن «أبورواش» ليس بالمنزل، طلعنا سلالم الدور الثالث مسرعين ودخلنا شقتها، ألبسها «عمر» ملابس الخروج بسرعة وعدنا بها لمنزلهم القديم دون أن يرانا أحد، كان الليل يقترب من نصفه.. ابتهجت أمها وبكت لعودة ابنتها من المصحة النفسية وقالت: اليوم عاد للجسد الميت روحه، احتضنتها وبكت كثيرًا وتركناهم بالمنزل بعد أن طمأنها «عمر» بأن اللص مدير الجمعية لن يأخذها مرة ثانية، وقال بصوت قوي أدخل في روحنا التحدي: أنا قد عدت لم يعد له مكانًا في حياتك.. وخرجنا صامتين.

حين جلسنا على مقهى «سيد» بعيدًا عن الناس أخرج «عمر» من جيبه ورقة وقال وهو يبكي: أتريدون أن تعرفوا كيف نزلت من بلاد الخليج التي كنت أكسب فيها الآلاف من الجنيهات، وأشار للورقة التي في يديه، وقال إنه خطابها الأخير. قال «مينا»: كنا نرغب أولاً أن نعرف لماذا سافرت، قال «عمر»: لا يهم كل ذلك المهم أنا الآن معكم ويمكننا أن نفعل الكثير لإنقاذ بلدتنا من جبروت «أبورواش» و«كليب» و«سيد» المخبر و«أمينة»، يمكننا أن نفعل الكثير. فتح الخطاب وقرأ علينا دون خجل: يا عمر إنت فينك يا خوي.. الشياطين بتاكل في جسمي.. خليني أموت من الشوق وأنت متغرب هربان.. خايف ترجع تشوف المرار بعد جوازي دون رضاك.. انزل يا خوي، أنا كنت طايرة بالبنفسج، متفتحة لخطيبي أبورواش ساعة عصاري، يومها قال لي يا متنورة بالشوق يا «جمالات».. ضحك علي وأنت مش هنا، وأنا اللي كنت تفرحني حتة بطاطا وكلمتين في الصفا.. انزل يا خوي.. شبعانة أمك من كلاب السكك.. محرومة أمك من رؤيتي.. انزل يا عمر.

كانت الكلمات تنزل علينا والدموع تترقرق في عينه فقلنا له: لا تستكمل.

قال المجرم: اتهمها بالجنون وأدخلها مستشفى المجانين لتعدد طوال الليل وهو يعيش في أحضان الفاجرة «أمينة» التي يعلم الجميع أنها عشيقه لـ«سيد» المخبر.. لن أتركه يمر بفعلته.. لن أتركه يمر.

نظر إلينا في حزن كأنه يعاتبنا لترك أخته يعذبها المجرم حتى فقدت عقلها وسمحنا للشياطين لترتع في البلدة ولم نقاومهم أو نمنعهم عن ارتكاب الخطايا وسلب قوة وعزيمة الناس.

أعطاني «عمر» خطاب «جمالات» أخته وقال لي احتفظ به، سوف أدخله السجن وسيكون هذا دليلي.

قمنا بعد أن سيطر الحزن علينا واستطاعت أمنا الغولة التي نسيناها أن تحبك القصص والحكايات الجديدة للأهالي لتنشر فوق سماء البلدة الحزن.

وحين وصلت للمنزل فتحت الخطاب في لهفة لأقرأ الدليل الذي سيدخل «أبورواش» السجن، كانت تقول في منتصف الصفحة الثانية بعد شخبطة لم أفهم ما معناها: من غير بيوته كنت نفسي أعيش، أنطلق وأشرب معاكم عصير الليمون والمشمش، كان نفسي أشوفك ولو مرة تقف قصاده وتعاتبه على ظلم البريئة، وتأخذ هدومي من الدولاب وتهرب بي للربيع، كان نفسي أغادر جمعيته وأرقام حساباته وأنطلق.. مين يتهزم لك يا خوي عشان تعود.. مين ينتصر لك يا خوي عشان تحس بي.. مين عضني وعاص مداسه في الخراء وشربني منه غيره.. انزل يا خوي وحوش عني.. قادر تخلص على القديم بسهولة وتنسى.. قادر تعض اللي فات منك وتقهره وتعاشر الموت في بلاد الغربة.. قادر لكن يا خوي قوته وظلمه قادرة على طيبتي.. فين يا واد الشوق لأهلك.. يا جاحد.. أمك المحرومة من لمسة أيديك.. محرومة منك يا خوي.. انزل يا عمر.

قادر تعيش في الغربة كم سنة تاني والجنون هياكل دماغي.. كل يوم بشوف وأسمع بلاوي ومش قادرة افتح حشمي اللي اتملي بالخراء.

قادر تقطع شرياني وتفقد اسم البلاد وأصحابك.. قادر تقوم الصبح من غير عينيك.. يا قسوتك.. يا حته من قلبي ضاعت في الظلام.. قادر تغرق كل السفن وتبور كل الأراضي ومش قادر عليه.. بيسفف أختك التراب يا عمر.. حوش عني يا ابن أبوي وأمي.. فينك يا واد.. وريني وشك أمزعه بإيدي.. فينك يا خوي يا حته من قلبي الحنين.. خايف علي ولا على نفسك.. بتخاف علي وتايه هناك.. مغروسة أختك في الوحل.. عشرين سنة مسافر وغايب ومش سامعه غير حكاوي عنك..

عشرين سنة مرت على محرومة من ريحة القمر وطلعة النيل المورد.. لأجل اللي فاضل من سنين ونسيته ترجع يا خوي.. ارجع هبوس رجليك واقولك كنت غلطانة، يوم ما خالفت رأيك وقبلت الجبان جوز لي.. ارجع وميهمكش عقلي اللي ضاع.. لو حسك ترجعلي روحه وأشوف الضفيرتين على خدودي من تاني.. متنورين بيك وبالشمس وبالفجر اللي طالع عندك ومحرومة منه هنا.. لو وصلك جوابي يا خوي أعرف أني كتبته في اليوم الأخير لي في بيت «أبورواش» لأني من بكره هروح السرايا الصفراء علشان أخف من حبك، ارجع وهتلاقيني هناك وهتعرف يا خوي ازاي ترجع حقي اللي ضاع وتحاكمه.. ارجع مبقاش فاضل إلا الجواب الأخير اللي كتبته بدموعي، حافظ عليه يمكن أموت.

انسكبت دموعي كالمطر حين أنهيت الخطاب الطويل الذي تجاوز عشرين صفحة، وقتها قلت كما قال «عمر»: لم يعد للمجرم مكان بيننا.

الغدر

حواديت كثيرة حكاها «كليب» بعد عودته من حربه وجهاده عن بشر يأكلون لحوم بعضهم ويعبدون الأبقار والقطط والكلاب والحيوانات، حواديت كثيرة حكاها عن فشل رحلته وعودته مهزومًا، استطاعوا أن يعمقوا غله وكرهه بعد أن فقد عقله.

.قال في الحرب حولوا مياه البحار لبرك من الدم وأهدروا كتاب الله وسنة رسوله في صراعات مستحيلة بين الشيوخ المنقسمين والعدو الكافر.

حين قبضت عليه سلطات الأمن السري وهو عائد من حرب المسلمين في أفغانستان حكي لهم «كليب» عن أيامه الأولى بالمدرسة، وكيف كانوا يلقنونه الأكاذيب عن جبروت الله وهول غضبه لارتكابنا المعاصي.. لم يقل له أبدًا هؤلاء الشيوخ إن الله غفور رحيم ويحب عباده التائبين.

قال للأجهزة التي حققت معه بعد عودته: أخذني المجاهدون في ليلة مظلمة وبمساعدة «سيد» المخبر لنسافر لنحارب الكفرة، لم أكن أفهم ما يحاربون من أجله ولكنهم قالوا: إن أعداءنا انتهكوا حرمات الله، ورغم أني شاهدت الموت بعيني مرات كثيرة وانفجرت بجواري قنابل أخذت روحي وقتلت العشرات من عساكر الروس إلا أنني في النهاية عرفت أنه لا مكان لي هناك.

دربنا ضباط بشعور صفراء وبشرة حمراء وعيون خضراء وسط الأحراش عن فنون الكر والفر وحمل الأسلحة والقتل دون رحمة، كانوا معلمين مجردين من المشاعر والخوف ويعاملوننا كالآلات، لم يحسوا أبدًا بأحلام أحد منا، ولم يهمهم معرفة أسمائنا أو بلادنا، فعقدت العزم على الهرب، وساعدني بحارٌ هندي في الخروج من المعسكر، ألبسني ملابس امرأة ووضعني على مركب، ودون وداع قال ستقف في بلادكم،

حين نزلت بميناء السويس من السفينة قبض على العساكر.

كان النوم قد غادر عينيه طوال شهور التحقيق والحرب، وأخذه الضباط لأماكن سرية يحكي لهم عن ملامح الجنود الأفغان والروس وأسمائهم وطريقة حروبهم. وبعد ستة شهور ذاق فيها العذاب طلب منهم أن يأتوا له بـ«سيد» المخبر وبعد مقابلة طويلة غسل فيها «سيد» المخبر تاريخه القذر ليبدأ عهدًا بديلا للسفالة بتويته على يد رجال الأمن الجدد، وأكد «سيد» المخبر أن هؤلاء الرجال كالشياطين لا يظهرون إلا ليلا ويعرفون كل ما يجري في البلدة، ليس هناك أحد يتنفس أو شجرة تنبت إلا وحكايتها مسجلة بملفاتهم، سنعتبرك أحد رجالنا ونطلق سراحك لتعمل معنا كمرشد عن الإخوان والمجاهدين، الذين انتشروا في البلدة، وافق «كليب» على الغدر واستطاع «سيد» المخبر بمكره ونفوذه أن يتفق مع الضباط السريين بإطلاق سراحه ودعمه بالأموال ليتاجر في أموال الناس ويتقبلون عودته من السفر منصورًا ويكسب ثقتهم ويحكون له عن خبايا نفوسهم، ليعيد تسجيلها بتقاريره اليومية ويرسلها للجهات الأمنية فيحصل على المزيد من الأموال، واعتبروه منذ ذلك اليوم أهم عملائهم السريين.

الشيء الغريب الذي لم يحاول أحد من البلدة فهمه هو تحول «كليب» لتاجر ملابس كبير وفتحه لعدة محلات بالبلدة وانتشار فروعها الشهيرة بعد مرور السنين بكل مدينة!.

من كثرة إعجاب الناس بالخير الوفير الذي مني به طلبوا منه أن يشاركوه بعد أن قال: إن الربا وفوائد البنوك حرام، كان الناس يقولون اعتبرنا شركاءك يا «كليب» في تلك التجارة، وقيل إنه جمع مائة مليون جنيه قبل أن يهرب بمساعدة «سيد» المخبر وضباط الأمن السريين الذين حصلوا منه على عشرين مليون جنيه ليغلقوا ملف الغدر ويحرقوا ماضيه الملوث، وترك الأهالي مذهولين من حيلته وغدره بهم بعد أن

صدقوا أن فوائد البنوك والربا حرام، فاستحقوا بأطماعهم أن يتحسروا في ليلة حزينة على أموالهم التي نهبها الشيخ «كليب» وهاجر لخارج البلاد ولم نسمع عنه مرة أخرى.

من بعدها انتشر الغدر بالبلدة واختلفت معايير الأمان، فبعد أن علم «أبورواش» بعلاقة زوجته «أمينة» بـ «سيد المخبر» ولم يعترض وقال.. المهم من يفوز في النهاية؟!!

بالرغم من انتشار الكذب، إلا أن «نصرة» أم العاجز ظلت مؤمنة بقدرة ولي الله بالضريح على تغيير الأحوال، وشاركتها «جمالات» التي عالجها أخاها بمنزل أمها وآمنت بأن نهاية «أبورواش» قد قاربت على النهاية.

وفي ظهر اليوم الذي هرب فيه «كليب» بأموال الأهالي مرت سيارة «أمينة» الفاجرة من أمام «فرشة خضار» «أم عويس» دون أن ترمي السلام عليها، قالت «أم عويس» في حسرة: يا صبر أيوب مين يعدل حالك تاني يا بلد.. البت الفاجرة اللي ياما حشت عنها الشر تمر بسيارتها مثل أمنا الغولة لتعمي عيني بعجلات سيارتها المفكوكة دون أن تبتسم في وجهي متناسية فضلي عليها.

كانت «أم عويس» التي أنقذت «جمالات» الشقية في يوم الريح وتعيش داخل قلوبنا جميعًا كامرأة جميلة ومنعت الشياطين والجن الأزرق من إيذائنا فحملنا كل الحب والذكرى لامرأة قدمت للجميع الحب والخضار والفاكهة، كانت أمنا جميعًا تعطينا حبات البرتقال وتقول إنها أجمل الفاكهة، وطعمه في نهاية الموسم كالمانجو، كلوا منه قدر ما تستطيعون فسوف يشفيكم من الحقد.

لم ننس أبدًا أنها منعت «أمينة» من حرق منزل «جمالات» للعبادة بعد أن جاءت بشعرها المنكوش وحدها بعد أن عمّ الظلام ورحلنا

لمنازلنا لتحرق منزل «جمالات» الذي صنعناه من فضلات أخشاب والد «مينا» وأشعلت النار في الأخشاب، إلا أن النار لحقت بفستانها ولم يطفئها إلا «جردل» مياه «أم عويس» التي ألقته عليها وحضنتها وطردت الخوف من داخلها.

ولم ننس اليوم الذي خطفت فيه الجنية صديقنا «أحمد صبحي» بالساقية وعدنا باكين عاتبين عليها، لأنها لم تتمكن من إنقاذه كعادتها. وكنا نتحدث عن شعره الأصفر وعينيه العسليتين اللتين فقدناهما للأبد، ولكنها حضنتني وبكت معي على فراقه وقالت لي: قبل موته جاءني وقال لي احتفظي بخصلة شعري يا «أم عويس» وقولي لأصدقائي إنني أحبهم كثيرًا وليس شعري بغالٍ عليهم.. قلت له يا واد يا «أحمد» شعر إيه وهباب إيه يا منيل اللي هتعينوه عندي. لكنه قال: ملكيش دعوة.. وتركني لتغدر به أمنا الغولة عند الساقية.

حين تأتيني ذكراه بعد أن خطفته أمنا الغولة وخبأته بكهفها بساقية عمي «غنيم»، أخرج شعره الأصفر وأحضنه بيدي فأفاجأ به يجلس معي ويحدثني ويطلب مني أن أفرح لأنه استطاع الهروب من كهف أمنا الغولة الموحش لحدائق أطفال الملائكة، كان يقول: حافظي على المتبقي مني فهو الأمل الباقي، كنت أفعل بوصيته وأحتضن شعره الذي أخفيه حتى يعود.

كانت «أم عويس» مشغولة بـ«أمينة» الحقودة التي تزوجت المجرم «أبورواش» وكونوا جمعية لنهب الأهالي بادعاء نشر البر قالت: الفاجرة زوجة الكلب بتاع جمعية الفقراء أخذوا صورة بطاقتي عشرين مرة علشان يجيبولي قرض وكل شوية يمضوني على ورق ولم أحصل في النهاية إلا على عفر وتراب تلقيها سيارتهم على فاكهتي. وقالت في حسرة: نسيوا أصلهم وأصبحوا بهوات وأفندية وميعرفوش أم عويس بائعة الفجل والخضار اللي ياما أنقذتهم، آه يا صبر أيوب.. منين أجيبك

علشان تشيل عني البلاوي اللي كل يوم بتزيد.. يا صبر أيوب تعالى واتفرج على الغدر المسنود بدين الله وسيد المخبر.

وحين كانت تناجي «أيوب» ليساعدها في تحمل العيشة والغلب والناس قال لها أحد المارين: الحاج أبورواش عايزك يا أم عويس في الجمعية آخر النهار، استغربت المرأة وقالت: هتاخذ إيه الماشطة من الوش العكر.

الهروب

تأمل «عمر» السماء وهو يقف بجوار محطة القطار محاولا تقبل جحوده بترك أخته ليسرق روحها «أبورواش» وهروبه من البلدة لبلاد الغربة بعد أن تواطأ الأهالي مع «أبورواش»، ليبني مصنعًا ومطحنًا ويفتح المحلات التي تبيع الملابس المستوردة واستولي بتجارته على عقول وضمير الأهالي.

ورغم أنه استعاد أخته وابنها من بيت «أبورواش»، إلا أنه كلما نظر لعيونها وعيون أمه، عرف أنهم لم ينسوا رحيله في ليلة حزينة وتركهم لينهش «أبورواش» لحمهم ويتوحش ويبني منزلاً كبيرًا مكتوبًا عليه «فيللا أبورواش»، وتجاهل الأهالي تزايد سطوته بعد بنائه مقرًا كبيرًا لجمعيته بمشاركة زوجته «أمينة» ليجمعوا الأموال بتواطؤ «سيد» المخبر ليسرقوا أحلام الناس بعد أن جمعوا المعلومات عن تحركاتهم وطموحاتهم وآمالهم.

ظل واقفًا عند المحطة يتذكر ما حدث ويقول لنفسه: لماذا لم يغفروا لي كما غفرت لهم.. تركوني أرحل حتى فر العمر من يدي، كيف فشلت في أن أجعل السماء تمطر عليهم محبة وتغسل البذاءات التي أتلفت روحهم؟.. كيف فشلت؟.. هل لم أحب «نن» عيونهم بما فيه الكفاية؟ هل أغرتني أنا الآخر شهوة المال والنفوذ فهاجرت من البلدة لأحصل على المال الوفير وأتركهم حيارى في مواجهة جبروت «أبورواش» و«سيد» المخبر؟ لماذا لم يغفروا لي أبدًا، لماذا لم يؤمنوا بي ولو مرة واحدة مع أني آمنت بهم جميعًا؟ هل كانوا يحتاجون مني شيئًا غير المال؟ لماذا وافقوا جميعًا على زواج «جمالات» بالمجرم؟ أليس المال والعز؟ ألست الوحيد الذي رفض زواجها؟ ألم يكن يكفي إعلان رفضي؟ كيف لم أفهم نظرة عيونهم التي اغتالها العساكر عند مدخل البلدة حين بنوا قسم البوليس؟

وحين قارب النهار على الانتهاء نظر للبلدة القريبة من المحطة، وتذكر

ليلة المولد وحنية «إبراهيم بليلة» و«فايز» القسيس و«أم عويس».. لكن الذاكرة خانته ولم يعرف باقي الحكاية بعد أن هجر البلدة غاضبًا من أمه التي وافقت على زواج أخته «جمالات» من «أبورواش»، قال يومها إنه لا يستحقها، سوف يدوس عليها ليشبع رغباته بجمع المال وذل نفوس الأهل، لكنه في النهاية هرب لبلاد بعيدة ذاق فيها المر وتحمل القسوة والغل من شيوخ محرومين من الإحساس كي لا يعود مهزومًا لبلدته، وحين قرأ خطاب أخته الأخير لم يتحمل فنزل دون أن يعرف ماذا سيفعل بعد أن استولى «أبورواش» و«سيد» المخبر على مقاليد الأمور وبيوت الله وأصبح الناس الذين كانوا يعشقون الأمل ضحايا لجبروتهم.. في الأيام الأخيرة اندهش الناس حين علقت «أمينة» زوجة «أبورواش» يافطات كبيرة منذ عدة أيام على كل الجدران تعلن أنها مرشحة لعضوية البرلمان.

تذكر «عمر» العائد من بلاد الغربة حكاية صديقه «سيد صبحي» الذي مات بساقية عمي «غنيم» وترك عينيه العسليتين وشعره الأصفر أمانة عند «أم عويس» قبل غرقه واختفائه، وسلمتها «أم عويس» لأعز أصدقائه الذي حمل وحده ضمير هذه البلدة، وحاول خلال العشرين عامًا الماضية أن يذكر أهالي البلدة بكل المعاني الجميلة التي يفقدها الناس كل يوم، وأصبحت لا تهم أحدًا ببلدة الأحلام، نظر لأسطح المنازل من عند محطة القطار، وقال كيف يمكن إعادتها مرة أخرى لسيرتها الأولى؟

رن جرس تليفونه المحمول وأبلغه «مينا» بأنهم ينتظرونه على مقهى «سيد» ليدرسا معًا كيفية مواجهة الشر القادم بترشيح «أمينة» للبرلمان بدعم «سيد» المخبر.

قال «مينا» لـ«عمر»: ضروري نتقابل النهارده، فغدًا يوم فاصل في حياة البلدة، لأن محافظ البلدية سيزورها وينوي المجرمون أن يقلعوا

أشجار نقن الجن والشمام التي تحيط بالضريح ليقيموا مركزا للشباب يلعب فيه الأطفال خلف أسواره ويتظللون بحوائط أسمنتية بدلا من ظل الشجر الذي ظل لأكثر من ألف عام يلقي بظلاله وروائحه على كل المريدين والضحايا، ويشفي مرضاهم ويحقق أحلامهم دون مقابل.

كان الليل قد بدأ يزحف على الطريق.. شاهد «عمر» عمي «إبراهيم بليلة» و«أبوعيشة» و«فايز» القسيس يهرولون هاربين ناحية المحطة، أوقفهم وسألهم: أين تذهبون؟ لم يعرفوه في البداية ولكنه ذكّرهم بالأيام الأولى والضريح الذي كانوا يلتقون حوله كل ليلة وقهوة «سيد» الذي كانوا يلعبون عليها «الدومينو»، قالوا بصوت جماعي: أنت «عمر» أخو «جمالات» زوجة «أبورواش»، قال نعم وقد عدت لأعيد لها حقها وأحبسه، قالوا له يا بني عد لغربتك واركب القطار وسافر، البلدة تحولت لمملكة للشر يملكها الأبالسة التي يحيطون بـ«أبورواش» والمخبر، لن يستطيع أحد إعادتها سيخربون البلدة ويحولوها لمدينة الرذائل.

وتركوه وساروا باتجاه المحطة، أخرج تليفونه المحمول واتصل بأصدقائه ليلحقوا به من عند المحطة، وقال لهم: الأمر خطير احضروا لي في الحال.

كان «فايز» القسيس يخلع سرواله الأسود ويضعه على ظهره بينما وضع «إبراهيم بليلة» مداسه تحت إبطيه، لحق بهم «عمر» وقال لهم: انتظروا وسوف نغير الأمور، ابقوا معنا وسوف نطهر البلدة منهم ولكن لا تتركونا وتهربوا، سخروا منه وقال أحدهم: من الذي هرب يا «عمر» وترك الأهل يغتالهم المخبرون ومدعو الإمامة.. من الذي هرب وترك أخته والعمال الشقيانين للمجرمين ليغلقوا مصانع كانت تنتج الصلب والنحاس والذهب والعمران، وفتحوا مصانع لتعليب وحفظ الطماطم.

تكلم بحرص يا «عمر»، نحن نريد أن نخرج من البلدة سالمين بعد أن

تواطأتم جميعكم وسلمتهم للشياطين زمام الأمور.

كان «مينا وسالم وزعبولا» قد لحقوا بـ«عمر» وهو يحاول إقناع الرجال العجائز الثلاثة بعدم مغادرة البلدة، وحين التف الشباب حولهم بكي عمي «إبراهيم بليلة» وقال: لن يستطيع أحد منع جرائمهم، الشر استوطن بأرواحهم بعد أن أطلق الشياطين والجن الأزرق بمنازل البلدة سحابات الغل.

أيد «فاين» القسيس قوله وقال للشباب: اتركونا نهاجر البلدة قبل أن يغتالوا الحب فينا، اتركونا لنحتفظ للأبد بضمائركم نظيفة علكم تعودون يومًا فتجدونها مصونة.

بكى عمي «أبو عيشه» وقال لهم: حافظوا على الضريح وامنعوا قلع شجر ذقن الجن والشمام الذي يحيط بالضريح، فالأشرار أحضروا الكراكات وعربات الأمن لينقلوا الضريح بدعوى إقامة مركز للشباب، اتركونا لأننا سنموت إذا شاهدنا رجالنا الأوائل الذين علمونا الحب والأمل يقتلعون من جذورهم ويُلقى بهم خارج البلدة، اتركونا حتى لا نموت بحسرتنا على بلدة كانت تعلم الناس الحب وتمكن الأشرار من غزوها ومحو تاريخها، اتركونا لنظل في ذكراكم كحلم باقٍ علّكم تنجحون في يوم ما وتقتفون أثرنا وتذكرون للناس بهجتنا وأعيادنا فيتعلمون من جديد معنى الحياة.

اتركونا.. فلم يبق إلا الرحيل، وساروا وسط ذهول الأبطال الأربعة ناحية المحطة حاملين الحلم في قلوبهم ليحتفظوا للأبد بذكرى جميلة في قلوب الأهل جميعًا، وبعد أن ركبوا القطار نظروا للبلدة متمنين للجميع السلامة.

القسم الثاني

المقاومة

لحظات عصيبة مرت بها البلدة فِي اليوم التالي لمغادرة القس «فايز» و«إبراهيم بليلة» و«أبو عيشه» اعتراضًا على هدم الضريح وحرق أشجاره، تجمع الأهالي حول الضريح محاولين منع الكراكات من اقتلاع أشجار ذقن الجن والشمام وهدم الضريح.

سكنت الدنيا وذهل الضباط من مشهد مقاومة الناس مرور الكراكات على جثث الأشجار ورفضهم اقتلاع الأشجار وهدم الضريح الذي مات صاحبه منذ آلاف السنين ولا يقدم لهم شيئًا رغم تحملهم الظلم والفقر دون مقاومة، لم يكن الضباط وحدهم المذهولين، لكن الأجهزة السرية كلها كتبت في تقاريرها أنها لا تستطيع تفسير كيف لبلدة ترتع عشرين عامًا مع المخبرين واللصوص ومدعي الإمامة والفاسدين أن يحيطوا بالضريح والأشجار ويرفضوا مرور الكراكات إلا على جثتهم في تحدٍ وإصرار لم يتوقعه أحد من هؤلاء المشردين.

لحظات عصيبة مرت، تذكر الناس المجتمعون في وقت واحد، وهم يقفون ووجوههم مشدودة نحو الموت ويتوسطهم الأبطال «مينا» و«عمر» و«زعبولا» و«سالم» في صمت رهيب، حكاية البلدة التي لم يكن بها إلا مسجد واحد يقيم شعائره ويفتحه وينظفه الشيخ محمود عتابي ويؤذن له ويساعده عمي «إبراهيم بليلة».

تذكر الناس وهم مجتمعون قوة الشيخ حين كان يخطب بالناس فيعيدهم لسيرتهم الأولى ويبهجهم بحب الله والبر والتقوى.

كان ينتقد العمدة وشيخ البلدة الذين يعلم أنهم ارتكبوا المعاصي فيجاهر بأسماء ضحاياهم كي يتوقفوا عن ظلم الناس، كان يقول إن العمدة يوم الثلاثاء الماضي ضغط على «ابن زليخة» ليتنازل عن أرضه، وأخذ عقد أرضه بالقوة وهدده بالحبس بالسلاحليك في حضور شيخ البلد، أهذه هي الأمانة التي تحملها يا عمدة بعنقك.. هل من العدل

أن تغتصب أراضي الفلاح المسكين؟

يرتعد العمدة وسط الجامع ويظل صامتًا وعند خروجه من الجامع ينادي على «ابن زليخة» ليعيد له أرضه، لم يكن يجرؤ أحد على معارضة الشيخ، كان ينظر للمصلين وهم يلعبون الدومينو بعد الصلاة وقبل أذان المغرب بحب وعطف ويقول: إن لقلبك عليك حقًا.

تذكر الناس وهم يقفون في صمت أمام الكراكات صندوق البر الذي أشرف عليه الشيخ وأعطى منه لكل مطلقة بالبلدة راتبًا شهريًا يكفيها ويفيض، كان «بيشوي» الأب يشاركه جلساته على المصطبة الكبيرة بالشارع البحري يتدارسون غلق مجاري الشر بالبلدة ومساعدة المحتاجين والأرامل ووقف الأذى، كانوا يقتسمون الحب لتزدهر أشجار الشمام وذقن الجن والورود حول بيوت الله التي اعتبروا أنفسهم جنوده المدافعين عن قيم الضمير في الأرض.

كان يحيط بالشيخ «محمود» والأب «بيشوي» رجالٌ أمثال «أبوعيشة»، و«إبراهيم بليلة»، وعمي «صليب»، والحاج «عبد الحميد» العجلاتي، و«موسى المقري»، والقس «فايز»؛ ليقدموا الخير والبر للأهالي دون تفرقه، استطاعوا أن يجعلوا من بلدتنا مكانًا للحب والأمان.

وبعد وفاة الشيخ «محمود» والأب «بيشوي» تمكن أنصار الشيطان من الاستيلاء على بيوت الله والغدر بالرجال الطيبين المحيطين بها.

كانت الكراكات قد توقفت بعد أن منعها الناس بأجسادهم وتراجع الضباط والمخبرون المحيطون بهم وقد أفزعهم تحدي هؤلاء البشر المسالمين، رغم أن رصاص بنادقهم أصاب «مينا» و«زعبولا» و«أم عويس» العجوز إلا أن الناس لم تتزحزح من أماكنها كأنهم يبتغون الانتحار.

تذكر الناس في تلك اللحظات الحيلة والمكر اللذين استطاع بهما «أبورواش» أن يخدعهم طوال العشرين عامًا الماضية؛ ليتمكن من السيطرة على إمامة الجامع وصندوق البر، ونشر الملتحين ليزرعوا الفرقة والغل ويهددوا الناس بجهنم التي تنتظرهم بالآخرة.

خطب بالمسجد بعد وفاة الشيخ «عتابي» عدد منهم بدُعوى أنهم حصلوا على التعليم بالأزهر الشريف وأعطوا للناس الدروس في المواريث والحدود والحلال والحرام، ونشروا بأدعيتهم الكاذبة الملابس السوداء والأحجبة وزجاجات قذرة لعلاج الأمراض كانوا يصنعونها بحجرة مدفونة خلف الجامع يمتلكها «أبورواش» وقد توسعت تجارته بعد ذلك فبناها مصنعًا للعطور والمفتقة والأعشاب الطبيعية.

وتمكن «أبورواش» من تشغيل مجموعة كبيرة من العمال الذين تركوا عملهم بالمصانع الخاسرة وأغلقت أبوابها وتوقف إنتاجها، وكوّن منهم مجموعة عملت، كذبًا، تحت إدارته كمصلحين اجتماعيين بين الأهل، فنشروا الفرقة والتجسس على خبايا البيوت.

ظهر هؤلاء المدعون كبديل للرجال الأخيار الذين كانت تمتلئ بهم البلدة والذين كانوا يحيطون بالشيخ «محمود» والأب «بيشوي»، ببراعة الحاوي تمكن «أبورواش» من السيطرة على المسجد وصندوق البر، وملأ استمارته بمعلومات قدمها لأجهزة كثيرة ليحصل على التبرعات والأموال، وبعد أن سلم صورة من الاستمارات التي تمتلئ بأسرار البيوت لـ«سيد» المخبر نال رضا الأجهزة فسمحوا له بتحويل صندوق البر لجمعية أهلية وأعطوه رقمًا في جهازهم الاستخباراتي الكبير، وبذلك تحولت الجمعية من صندوق للبر لمكان لنهب العطايا والإتجار بأسرار الفقراء، وأحكم أبورواش قبضته على مقاليد الأمور بالبلدة بدعم «سيد» المخبر الذي حقد عليه في النهاية بسبب بخله وتوحشه فرافق زوجته الثانية.

تذكر الناس وهم يحيطون بالضريح.. «أمينة» الفاجرة التي تعلم حقيقة زوجها وادعاءاته الكاذبة بفعل الخير، لأنها كانت تشرف في البداية على تشغيل الناس بمصانعه دون عقود عمل أو التأمين عليهم، وكان يقول لها: إن العقود ستزيد الأعباء علينا وعلى العمال، وأن العلاقة الحرة التي بنيناها بيننا تقوم على الثقة والحرية وهما أفضل من القانون. كانت «أمينة» تعلم كل شروره ورشوته للأجهزة والأموال التي استولى عليها بالنهب لذلك لم يخيفها افتضاح سر علاقتها بـ«سيد» لأنها تعلم أن «أبورواش» لا يهمه إلا جمع الأموال ولو على حساب شرفه وسمعته، فقالت له في فجر حين فاجأها بمعرفة خيانته إن كان عجبك.

عاشرت «سيد» المخبر بحماية الشيطان الذي غذى حقدها وأقنعها بضرورة ترشيحها للبرلمان لتصعيدها وسط أعالي القوم حتى تأمن شر «أبورواش» ولتحمي «سيد» من بطش الضباط الجدد الذين لا يفهمون من أمور الأمن السري شيئًا، وأقنع رؤساءه القدامى فرشحوها وعلقت صورها بالميادين لينتخبها الناس لتمثلهم بالمجلس النيابي، وأقنع المحافظ بزيارة البلدة وبناء مكان الضريح القديم مركز شباب كي يبتهج الناس ويصدقوا أن بركات «أمينة» أهم مما تقدمه ولي الله الذي مات منذ مئات السنين، وأن ظل الأسمنت والتكييفات والمراوح بمركز الشباب أفضل من نسمات وعطور أشجار الشيخ التي تفوح من أشجار الشمام ونقن الجن المعمرين خلف الضريح كل صباح بالبلدة.

تذكر الناس كل تلك الحكايات وهم صامتون ينظرون للضباط والكراكات في تحدٍ ولم تخفهم كالعادة بنادقهم ورصاصهم الحي وإصابة «أم عويس وزعبولا ومينا» وهم يدافعون عن الضريح.

وحين أمر الضابط جنودهم وكراكاتهم بالانسحاب من حول الضريح والعودة لقسم الشرطة لم يتحرك الناس من مكانهم وظلوا صامتين

ينظرون للجنود والضباط والكراكات ليقهروهم من حول الضريح.

خرج أهالي البلدة من الوحل وانتصبت قامتهم فجأة دون أن يدروا ووقفوا بصلابة ليلقوا مصيرهم وأقدارهم للمجهول دون خوف.. لم تهتز أبدانهم، لم يكن هناك إلا أرواحهم المرفوعة لمواجهة بنادق العساكر أمام الضريح، صرخوا جميعًا وهم صامتون. لن تقتلعوا الأشجار والضريح، لن تأخذوا الباقي من ديننا.

كانت «جمالات» وأمها تقفان مزهوتين، وعيونهما المفتوحتان بالأمل وسط الجمع، لم تكسرهما إهانات «أبورواش» ونسيتا ما حدث وفقدتا ذاكرة الانحطاط والغدر، كان وجه «جمالات» يشع نورًا يذكرنا بـ«جمالات» الشقية التي لم يكن يتصور أحدٌ في هذا اليوم أنها دخلت مستشفى المجانين لتشفي من غل وحقد «أبورواش» التي لم تفهم سببه حتى اليوم.

وحين أصيبت أم عويس بالرصاص الحي في صدرها، انتصبت وهي المصابة والدم ينزف منها ونظرت في تحد لـ«جمالات» الشقية التي كانت تجاورها والتي أنقذتها يوم الرياح العاتية من أمنا الغولة حتى لا تصرخ، فهمت «جمالات» ووضعت يديها على الجرح لتوقف نزيف دم أم عويس ومنعت روحها من مغادرة الجسد النحيل.

كانت «جمالات» محملة بكل أرواح البنات اللاتى فقدتهم البلدة في أيامها الكثيرة والذين عادوا اليوم ليحيطوا جمع الناس بالحب والأمان ويحافظوا على ذكراهم التي كادوا يفقدونها وحلقت فوق «مينا» أرواح «أبوعيشة» والقس «فاين» و«إبراهيم بليلة» حين فتكت رصاصات العساكر أفخاذه وظل واقفًا وممتلئًا بروح أحمد صبحي صديقهم الذي خطفته أمنا الغولة في يوم ما لتخفيه في كهفها البعيد بساقية عمي غنيم.

وقف مزهوًا وفخورًا بأصدقائه الذين يتوسطون جمع الناس، أتعبته أفخاذه المجروحة فجاءت روح «سيد صبحي» بعيونها العسلية وشعرها الأصفر وبراءتها لتوقف الدم النازف من فخذه وتقول: يا «مينا» أنا الآن أعيش مع أطفال الملائكة سعيد بعد أن هربت من كهف أمنا الغولة.. لا تحزن يا صديقي فقد نجوت، ذهل الضباط الذين لم يفهموا أبدًا سر دفاع الأهالي الطيبين وهم يتحدون تحذيراتهم في صمت ولم تتزحزح أقدامهم بالرغم من إصابة بعضهم بالرصاص.

سكنت إحدى الرصاصات كتف «زعبولا» ورمته على الأرض وأغمي عليه للحظات وحين أفاق ونظر في عيون الناس أمسك بحفنة تراب مخلوطة بحنين الشيخ وبقايا ورد أشجار الشمام ونقن الجن ووضعها على الجرح فشفي في الحال، ووقف وسط الجمع في شموخ والضباط والعساكر الذين شاهدوا كل تلك المعجزات وأذهلتهم تعجبوا صامتين من يوم لن ينسى من ذاكرة الأجهزة.

قال «سالم» بصوت عالٍ أبهر المجتمعين: لم يعد لـ«أبورواش» وزوجته الفاجرة مكان بيننا وسوف نعيد القس «فايز» و«إبراهيم بليلة» و«أبوعيشة» ليبهجونا من جديد.

حضرت «نصرة» أم العاجز بعد أن تركت ابنها بالمنزل لتشارك الجمع الدفاع عن الضريح والشيء المذهل أن ابنها الذي تركته بالمنزل كان يتقدم الصفوف ولم يمنعه عجزه من الدفاع عن الضريح بجسده وروحه. علمت يومها أن كرمات ولي الله الذي كان قد أعطاها خمسين جنيهًا لتؤمن بقدرته على الحب المكتمل فينا، عادت من جديد لأن ابنها صرخ في أمه وكانت تنظر له بخوف: انظري ناحية الكراكات ليخرج عشقنا للحياة دفعة واحدة ليوقف الشر.

أذهلها نطق ابنها الأخرس والأعمى فقال لها: لا تندهشي يا «نصرة»

فالله الذي حرمني النطق والنظر أعاده لي اليوم ليعي الأشرار رحمته المنطلقة من بريق عيوننا.

نظرت الأم العجوز ناحية الجنود في تحدٍ لتعيد للبلدة رائحتها الأولى وروعتها بتنفس رائحة أشجار ذقن الجن والشمام كآخر رائحة يجب أن تتنفسها أرواحهم قبل الموت.

اندهش الجميع من قوة «عمر» العائد من بلاد الغربة ليعيد لأخته المظلومة حقها ويعوضها بطش السنين وإهانات «أبورواش»، طارت روحه فوق البلدة بعد عودته من توديع «إبراهيم بليلة» والقس «فاين» و«أبوعيشة» عند محطة القطار وأفزعه ما ستؤول إليه البلدة فدخل كل البيوت وحكى الحكاية كلها منذ ميلاده وأعلن توبته عن هروبه الذي تسبب في تزايد اللصوص واغتيال «أبورواش» لأخته، كان يقول للأهالي: في الصباح سيقلعون أشجار الشمام وذقن الجن ويهدمون الضريح ليحرموا روحنا الطيبة الأمل الباقي، كان يقول للناس في كل البيوت وعلى المصاطب والمقاهي «إن الأمل الباقي إذا ضاع ضاعت البلدة».

وأعلن لهم أن غدًا ستكون النهاية وأن جسده فداء الضريح وأشجاره.. غدًا سيكون اليوم الأخير لبطش أبورواش.. لم يعد لهم مكان بيننا.. فصدقه الناس لأنهم يعلمون أن الضريح هو أخر ما تبقى لهم من بلدتهم الأولى.

رمت البنات الصغيرات ملابسهن وأحجبتهن السوداء على الأرض، وظهرت شعورهن بألوانهن الزاهية وظهرت صدورهن نافرة بعد أن أحرقن الإسدالات السوداء التي تبيعها محلات «أبورواش» التي ورثها عن «كليب» الذي حارب الوهم في بلاد الروس وعاد كمخبر ليهرب بأموال الناس دون رجعه.

أمسكت البنات العرايا السكاكين في مواجهة الكراكات والجنود المنهولين من بلدة لم يفهموا أبدًا قدرتها على تحدي الموت.

في اليوم التالي انتشرت الحكايات عن صمود الأهالي ونجاحهم في وقف مهزلة خلع الأشجار ونقل الضريح ولم يعد بالبلدة في الأيام التالية سوى تلك الحكايات، لكن الأبطال الأربعة الذين عاشروا الرجال الأوائل والذين أعلنوا الغضب وسط الأهالي لم ينسوا أبدًا المشهد الأخير عند المحطة للرجال العجائز المغادرين بأحلامهم من بلدة تصوروا أنها أبدًا لن تعود من جهلها وتوحشها، وحين تقابل «مينا» وزعبولا و«عمر» وسالم على المقهى في اليوم التالي قالوا جميعًا: من يعيد القس فايز وإبراهيم بليلة وأبو عيشه ليفرحوا بقدرة أبنائهم على تحدي الموت من أجل إحياء ذكرهم العطرة.


المخاض

في الوقت الذي كانت الكراكات والضباط والجنود يحيطون الضريح لهدمه كان «أبورواش» و«سيد» المخبر يعدان صناديق الانتخابات ويملآنها بالاستمارات المؤيدة لـ«أمينة». لم يفهما تصرف رجال الأمن وعدم سماع نصيحتهم بتأجيل هدم الضريح حتى الانتهاء من الانتخابات، لكنهما في نفس الوقت كانا مبتهجين لأن البلدة كلها انشغلت بالحفاظ على الضريح وتركتهما يملآن صناديق الانتخابات بالاستمارات التي تؤكد فوز «أمينة» مرشحة الشعب بمنزل «أبورواش» ومقر جمعيته بكل أمان.

استدعى «أبورواش» و«سيد» المخبر اللصوص والبلطجية وبعض أتباع «كليب» ليحملوا صناديق الانتخاب التي ملآها باستمارات مؤيدة لـ«أمينة» واستبدلوها بالصناديق الفارغة التي أشرف عليها الموظفون طوال النهار.

جاءت الأوامر للضباط بالإشراف على عملية الاستبدال ليعلن القاضي مبتهجًا فوز «أمينة» بأصوات أهالي البلدة مجتمعة بعد أن فرز الأصوات بحياد وموضوعية.

نسي الأهالي في هذا اليوم انتخاب أو ترشيح «أمينة» بعد أن اجتمعوا حول الضريح ليحموا جدرانه المهدمة ويقاوموا البوليس والكراكات في معركة، لم يفهموا أبدًا من افتعلها، وتركوا بإرادتهم لـ«أبورواش» والمخبر وعشيقته ملء صناديق الانتخابات الفارغة باستمارات مؤيدة لـ«أمينة» واستبدالها بالصناديق التي أشرف عليها الموظفون.

ولم يفاجأ أحد من الأهالي حين علموا بفوز «أمينة» بلا منافس لمقعد البرلمان عن بلدتهم، لكنهم فوجئوا بأحوال «أبوسعدة» الذي خرج من السجن وأصبح إمامًا للمسجد بفضل وضمان «سيد» المخبر و«أبورواش»، كان يركب في هذا اليوم سيارة نصف نقل ويضع عليها

«يفطًا» وأوراقًا كثيرة رسمت عليها صورة «أمينة» اللعوب، وينادي بميكروفون في يديه ليحفز الجمع المحتشد خلف الضريح ليذهبوا لأماكن الاقتراع بالمدرسة الابتدائية ويدلوا بأصواتهم قبل نهاية اليوم الانتخابي، وقال يومها لرئيس المباحث: رغم أني صرخت فيهم أكثر من مرة، إلا أنهم نظروا لي في سخرية وكأنهم لم يسمعوني، وشاهدت صلابة وعنادًا وتحديًا كنت أوقن أننا فقدناه منذ عملي معكم.

أثنى الضابط عليه ووعده بأن يأخذ ابنته وزوجته لمستشفى الأمراض العقلية بعد انتهاء الانتخابات لدوره الكبير في تنفيذ أوامر الأمن والنظام، لكن «أبوسعدة» اندهش من جمع الناس الصامد، فتذكر دون أن يدري مشهد خروجه لقتال عائلة «الزهرانة» وحده عاريًا في يوم ما لأنهم داسوا على رأس أبيه بالوحل، ولولا أن «إبراهيم بليلة» لحقه لكان الآن جثة عفنة بترب النصارى بجوار محطة القطار.

حين نودي على الصلاة في هذا اليوم، لم يدخل الجامع إلا بعض العساكر و«سيد» المخبر و«أبورواش» وابنه «أيمن» الذي أصبح يلازم أباه كالظل، ليتعلم منه المكر والحيلة بعد أن تشاجر «أيمن» مع «جمالات» وخاله «عمر» وترك لهم البيت ليعيش مع والده يتعلم منه الحكمة ويدير مصانعه وأعماله وجمعيته.

ورغم أن «أبورواش» وابنه أسرعا بعد صلاة العشاء لمقر الجمعية بعد أن سلما صناديق الانتخابات المزورة للقاضي المشرف على الصناديق ليعلن النتيجة بفوز «أمينة» بشرف ليختفوا بمقر الجمعية لمدة ساعتين بعد أن أغلقوا على أنفسهم المقر بالمفاتيح ليحرقوا بقايا الاستمارات وكشوفات الناخبين والمرتشين.

في هذا اليوم سلم «أبورواش» «أيمن» ابنه مفتاح حجرته السرية التي كان يمتلئ دولابها بعقود لمنح أجنبية وهبات وعطايا، لم يكن

يعرف عنها أحد شيئًا، لأنه خاف من افتضاح أمره أو وشاية «سيد» المخبر به بعد نجاح «أمينة» زوجته اللعوب في الانتخابات.

قال لأيمن.. أنت بديل عني لتقود البلدة إذا حدثت مفاجآت وأطاحوا بي.. يا ولدي الأمن لا أمان له فرغم أننا نعتبر رجالهم لكن الغدر في دمائهم وإلا ما تمكنوا من حكم البلدة.

كانت المستندات التي يخفيها «أبورواش» بالعربية والإنجليزية تؤكد علاقاته وتبعيته لمنظمات دولية سياسية ودينية وإتجاره في تأشيرات الحج التي تعطيها له الأجهزة مجانية فيبيعها للناس ويحصل على المال مقابل حصولهم على بركة زيارة قبر الرسول.

كان المستند الذي مكن «أيمن» من أبيه واستخدمه بعد ذلك ليقعده بالمنزل مهزومًا هو العقد المحرر بين «أبورواش» وإحدى الجهات الأجنبية ودوره في جمع المعلومات عن أحلام وطموحات الناس.

أكدت الخطابات الكثيرة للجمعية أنه كان يرسل تلك المعلومات وأسرار الناس لجهات استخبارية كثيرة دولية ومحلية، لكن المعلومات التي أذهلت «أيمن» تلك المذكرة التي كتبها «أبورواش» بخط يديه، تحكي أسرار زوجته «جمالات»، والتي يؤكد فيها أنه استطاع ببراعة أن يغلق قناة الخير داخلها والتي كانت تشع بهجة بعد تدريبه الأخير لها، ونجاحه في استخدام البشر كفئران تجارب ليفقدها الذاكرة ويجعلها تصدق أكاذيبه وافتراءاته فصدقت خيانة أخيها «عمر» وأصدقائه.

كتب بتقريره «أنها كانت تحاكي زوجته الثانية «أمينة» وحاولت أن تتزين مثلها وتلبس أحجبة وإسدالات سوداء كـ«أمينة» اللعوب»، وقد صدقت كذبه البارع بضرورة قيامها هي الأخرى بفتح جمعية أهلية ولما آمنت بما يقوله صدمها برفضه لجهلها وتلقائيتها، ووضع خطًا أحمر تحت تلك الجملة وكأنه يعلن النتيجة المتوقعة: أنت لا تنفعين إلا بجمعية لتربية الطيور فوق سطح المنزل، ففقدت عقلها لبراعته في

تصديقها ببراءة كذبه.

نسي «أبورواش»، في غمرة أحداث ليلة الانتخابات وهدم الضريح وهو يسلم ابنه مفتاح حجرة المستندات، أن يخفي هذا المستند الذي استخدمه «أيمن» ضده وحوّل أباه لشيخ مشلول قعيد يتسول الكلمة الطيبة من الناس.

مساء اليوم الذي هربت فيه الكراكات وانسحب ضباط البوليس للقسم وتركوا الضريح وأشجاره أمام صمود الناس، عادت البلدة -التي غامرت بمصيرها للمجهول- إلى هويتها.

أعلن القاضي فوز «أمينة» بالانتخابات، وقالت للمخبرين الذين راقبوا صناديق الانتخابات المستبدلة: إن الضريح وأشجاره ستظل مصانة طالما بقيت وسط أعالي القوم أمثل أحلامكم، لكن المخبرين والمراقبين لم يفهموا تصريحاتها إلا حينما ذبحت ثلاثة عجول في اليوم التالي أمام جمعيتها التي استقلت بها عن «أبورواش»، وبنتها خمسة أدوار، وأقامت سرادقًا كبيرًا ضم المخبرين وممثلي الجمعيات في البلدان الأخرى ومراقبي لجنة الانتخابات التي تشرف عليها منظمات حقوقية وقضاة، وملأوا بطونهم عن آخرها من طعامها الفاخر، وسلمتهم أظرفًا احتوت على بدلات للبهدلة والوشاية والمراقبة.. فصدقوا وقتها بأنها الـ«أمينة» على رزق أولادهم ودخولهم وفهموا حكمتها بضرورة الحفاظ على الضريح وأشجاره كذكرى لبلدة تائهة.

مع انتهاء اليوم واستلام «أيمن» مفاتيح الجمعية، أعلن المخبرون قيام صراع خفي بين «أمينة» زوجة «أبورواش» بكل جبروتها ونفوذها الجديد، وبين «أيمن» وريث المكر والغل والتزوير وابن «جمالات» الشقية التي حرّم «أبورواش» عليها رؤيته بعد احتدام الخلاف بينه وبين أمه وخاله فهرب «أيمن» لبيت «أبورواش» ليدير وحده ثروة أبيه الذي ضحي بكل شيء للحفاظ عليها.

القسم الثالث

الظلام

لم يكن يتصور أحدٌ أن يقتلوا «مينا» الذي قدم كل الخير على مر السنين، وأعطى دون أن يسأل أبدًا عن المقابل.. لم يكن يتصور أحدٌ أن يقتلوا «مينا» ذلك البطل الذي حارب مع أهالي البلدة دفاعًا عن الضريح حتى لا تفقد البلدة رائحة أشجار الشمام ونقن الجن.. قتلوا «مينا» وفقدنا ذكرى حكايته عن الملاك الطيب بين السماء والأرض، قتلوه بدافع الغل والكره ليدفنوا الذكريات الطيبة والحب بأعماق مجاري الشر داخلهم.

من كان يتصور أن يحيط الشباب الملتحون بدعم من المخبر الجديد «صبحي المنصوري» بالكنيسة بعد أن ادعى كذبًا بأن «مينا» هو القاتل وشاهده يدخل الكنيسة مختبئًا بعد ارتكاب جريمته.

الآلاف من الشباب والبشر أمسكوا السكاكين والسنج وملأ وجوههم الغل وحاصروا الكنيسة في غيبة الأمن يطالبون بخروج «مينا» وإلا أحرقوها بالمشاعل المملوءة بالبنزين والجاز.

ولم يسأل أحد الشيوخ أو الشباب الذين جمعهم «صبحي المنصوري»، رمز الأمن الجديد، كيف قتل «مينا» «سيد» المخبر؟

هل يمكن أن يقتل «مينا» أحدًا؟ تساءلت «أم عويس» العجوز وهي تشاهد الغل يحيط بالكنيسة محاولةً منع إشعال الفتنة، رغم المرض الذي فتك بْكليتيها وكبدها نتيجة انتشار الفيروسات بجسمها وصرخت في الجمع الذي ملأ الحقد قلوبهم: هل يمكن أن يقتل «مينا»؟ أين عقولكم؟ هل يمكن أن يمسك «مينا» بندقية ويصوبها بإتقان في قلب «سيد» المخبر الأسود؟ «مينا» الذي قدّم الخير لكل الأهالي على مر السنين، كيفَ تصورتم أن يقتل أحدًا؟! إذا كنتم ترغبون في معرفة القاتل، اسألوا «صبحي المنصوري» المخبر الجديد، اسألوا «أمينة» الفاجرة اللعوب التي أصبحت تحكمكم، اسألوا كبيرهم المجرم الجديد

«أيمن» «أبورواش» الذي يحكم عليكم جميعًا بالنوم كالفئران في جحوركم، كيف تصورتم أن يقتل «مينا»؟

كانت المئات تصرخ حول سور الكنيسة ممسكة بأسلحتها البيضاء والمشاعل: اخرج يا «مينا».. اخرج يا ابن الكافر.. يا قاتل المسلمين.. اخرج وإلا حرقنا ماخوركم يا كفرة يا أبناء الصليب.

شوهدت «نصرة» أم الأعمى والأخرس بعكازها تقترب من باب الكنيسة وتحاول منع جمع الشباب الملتحي من اقتحام البوابة، وقالت في تحدٍ وسط ذهول الملتحين: لن تقتلوا مينا.. اندهش الجمع، فكيف لامرأة أعجزها المرض وأكل السرطان الخبيث ثديها وأردافها أن تظهر وسط الجمع وتمنع اقتحام الكنيسة بجسدها؟! واقتربت «أم السعد» منها وأصبحتا كالفولاذ على بوابة الكنيسة.

صرخت «نصرة» أم العاجز المريضة بقوة أسكتت آلاف الصرخات التي أطلقها وأشعلها «صبحي المنصوري» المخبر الجديد، وهرب لمقر قسم الشرطة ينتظر نتيجة أفعاله الشيطانية وقالت وسط الجمع: أمانة عليكم عودوا لمنازلكم.. لم يقتل «مينا» أحدًا.. «مينا» حفيد القس «فايز» والأب «بيشوي» الذي زرع الورد مع الشيخ «محمود عتابي» وفتح قنوات الحب لتجري وسط حوارينا فتظلل علينا روائحه الطيبة.. «مينا» أبدًا لن يقتل أحدًا.. أنتم تعرفون من القاتل، ابحثوا عنه عند «أيمن» «أبورواش» و«صبحي المنصوري» والفاجرة «أمينة» وشيخ الجامع النصاب «أبو سعدة» الذي فقد أهل منزله جميعًا عقولهم بسبب اختلال موازينه وفقد ضميره، وجعلتوه إمامًا عليكم يقود صلواتكم.

وصرخت: كيف تتركون أبناء الشر يرتعون بالبلدة وتأتون لبيت الله تبحثون عن الملاك الطيب «مينا» لتقتلوه؟!.. إن قتلتم «مينا» ضاع الخير والأمان ببلدتنا، عودوا لعقولكم أمانة عليكم.. «مينا» أمانة

ببلدتنا تركه الشيوخ الأوائل ليخيف الجن والعفاريت.. «مينا» رفيق الملاك الطيب لم يقتل أحدًا.. فلا تقتلوه.

فوجئ الجمع بـ«أبورواش» المشلول يمشي وسط الجمع على كرسيه المتحرك وهو العاجز عن النطق يشير لهم بالرفض، وكأنه كان يقول: اقتلوني قبل أن تقتلوا «مينا»، اقترب «أبورواش» وسط ذُهول الناس من باب الكنيسة ووقف ليمنع الغل من الانتشار ولاصق «أم عويس» و«نصرة» على باب الكنيسة ليمنع الملتحين من اقتحام الكنيسة وحرقها، كان «أبورواش» يمسك عصاته ويشير للسماء وهو يستهزئ بالجمع كأنه يقول: استحق «سيد» المخبر القتل، لكن «مينا» الطيب أبدًا لم يقتله، كان «أبورواش» يعلم من القاتل لكن عجز لسانه ويديه منعه من النطقْ بالحقيقة.

فرد «أبورواش» فرخ أبيض كبير مكتوب عليه «مينا الطاهر البريء لم يقتل سيد المخبر المجرم»، عرف الناس بعد ذلك أن «مازن» ابن «سماح» هو الذي كتبها وأعطاها لجده ليفخر وسط الجمع بإعلانه براءة «مينا».

شاهد الناس «زعبولا» البطل وهو يحاول تفريق الجمع وهو ممسك «سنجة» كبيرة، فجرح كثيرًا من الملتحين حتى وصل لباب الكنيسة والدماء تسيل من ملابسه وصرخ: لن تمروا للكنيسة إلا على جثتي.

أمسكت «نصرة» و«أم عويس» المريضة و«أبورواش» العاجز في تلابيب ملابسه محاولين القيام بعمل سدّ يمنع المئات من البشر الملتحين المغيبين من ارتكاب جريمتهم بانتهاك حرمات بيت الله.

ارتفعت الصرخات والهتافات من الجموع المحتشدة: اخرج يا «مينا» يا ابن الصليب.. اخرج يا كافر.

كان الأب «وليم» يحتضن «مينا» بالداخل ويمنعه من تسليم نفسه للملتحين، ويذكره بحكمة الأب «بيشوي» بأنه لا يجب أن نلقي بأنفسنا للتهلكة، و«مينا» يتوسل للأب أن يتركه ليسلم نفسه ليحمي الكنيسة والأطفال الصغار والقساوسة من الموت ويعلن براءته، قال للأب متوسلا: اتركني لأبحث معهم عن القاتل.

كتب «صبحي المنصوري» المخبر في تقريره إنه تلقى إخبارية بالقسم صباح اليوم في العاشرة من مجهول تفيد بوجود جثة «سيد» المخبر بمقلب القمامة أول البلدة غارقًا في الدم، وقد أدلى مجهول بصفات القاتل الذي هرب وتؤكد بأنه «مينا» ملاك، خاصة أن فرقة البوليس التي ذهبت لمعاينة الإخبارية والتابعة للمخبر وجدت قطعة من قميص «مينا» يمسك بها «سيد» المقتول.

لكن أحدًا من البلدة لا يعلم كيف جمع «صبحي المنصوري» هؤلاء الملتحين والعمال من مصانع «أيمن» «أبورواش»؛ ليلاحقوا «مينا» بمبنى الكنيسة وهو يعلم البنات الأمان والحب، حاول «مينا» أن يخرج من وسط البنات والقساوسة ليعلن براءته لأنه لم يغادر الكنيسة منذ الساعة التاسعة والمخبر قتل في الساعة العاشرة.. لكن القساوسة أغلقوا باب الحجرة عليه ومنعوه من الخروج بأوامر الأب «وليم».

فاض الكيل بجمع الملتحين فأشعلوا المشاعل؛ لأن ظلام الليل قد حل وعزلت البلدة بعد قطع الكهرباء والتليفونات والمياه، فأصبحت الحواري كالخرابات مأوى للبوم والغربان التي تصرخ وتستعد لاقتحام وحرق كنيسة الرب بمن فيها للأخذ بالثأر من قاتل «سيد» المخبر المسلم عشيق «أمينة» وسبب كل البلاوي التي منيت بها هذه البلدة!

انتشر الشر وحلّق عاليًا فوق الجموع الغفيرة فداست أقدام الملتحين

جثث «أبورواش» و«رحمة» و«أم عويس» وفتكت سيوفهم قلب «زعبولا» الذي ظل رافعًا «سنجته» وأصاب عشرات الملتحين في وجوههم، لكنهم طعنوه مئات الطعنات حتى ارتمى أرضًا وهو يدافع عن صديق عمره «مينا» البريء الذي أكل معه وعاشره وبنى معه مئات المرات بيوتًا لله من أخشاب ورشة ملاك والد «مينا»، وكتبوا على باب بيت الله الخشبي «منزل جمالات للعبادة».

تذكر «زعبولا»، وهم يفجرون قلبه بسيوفهم، العيون العسلية والشعر الأصفر لصديق عمرهم «سيد صبحي» الذي كان قبل أن يغرق بساقية عمي «غنيم» قد تركهم أمانة عند «أم عويس» لتعطيهم لـ«مينا» ليحافظ عليهم ليذكرهم دائمًا بالصداقة والأخوة التي ظلت تحميهم طوال العمر الفائت كآخر رمز حافظت عليه البلدة.

ظل «زعبولا» المقتول يتذكر وهو مذهول من بلدة فقدت ذاكرتها ومشت نحو أقدارها للخراب وغاصت أقدام شبابها الملتحين بوجوههم الكئيبة في وحل الغل والتي لن تنجو أبدًا منه، وتسأل وقلبه ملقى تحت أقدامهم: كيف وصلت بلدة الأمان والحب لهذا الحال؟


الضحايا

في تقرير «صبحي المنصوري» لأجهزة الأمن السرية كتب: أحرق الملتحون الكنيسة، لم يتبق فيها شيء، جمع العساكر وموظفو الإسعاف أشلاء الجثث الثلاثين الذين استشهدوا بمعركة الكنيسة.

تساءل الأهالي: لماذا لم تحم الآلهة الكنيسة رغم أنها حمت الضريح وأشجاره في الزمن الفائت؟!

كان الأب وليم الشهيد الذي استلم الكنيسة من الأب «بيشوي» كاللبن الحليب الصابح لم يحزن أو يغضب أبدًا من أحد، كان يحتضن أبناء الأمهات الأرامل، كان صندوق البر بالكنيسة الذي يشرف عليه يعطي للأرامل دون تفرقة مبلغًا شهريًا يكفي لإعالتهم، علّمت الكنيسة في زمنه أبناء المسلمين والمسيحيين قيم العمل والعلم والموسيقى والمسرح، لكن كل ذلك لم يغفر له وهو يحاول منع الملتحين اقتحام الكنيسة فخرج لهم وقال: إذا كان «مينا» أخطأ فدعوني أحقق في الأمر ونأخذ جميعًا حقنا منه. لكن ابن الشيطان فاجأه بضربة السيف ففلقت رأسه نصفين، الشيء الذي أفزع الملتحين أنه وضع نصفي رأسه المشقوقة ليعود للحياة مرة أخرى ونادى فيهم: عودوا لضمائركم.. لا تفعلوا الفاحشة.. لا تقتلوا الأبرياء.. عودوا لضمائركم، لم يقتل «مينا» أحدًا، وأطلق صرخاته الأخيرة: يا رب أين أنت.. يا رب أين أنت؟

داست أقدام الملتحين رأسه المشقوقة دون رحمة. كانت بقايا صور الرب وأمه التي داستها أقدام المقتحمين تملأ بقايا الكنيسة التي كانت حتى الأمس منبرًا للإيمان والحب، قال أحد الجنود الذين يجمعون أشلاء الكنيسة المحطمة: صورة الأم «مريم» جميلة وتمتلئ حنية.. لكن الضابط الذي كان بخلفه لطمه على خده وقال: اجمع بقايا الحريق وأنت صامت حتى لا أحبسك أو أحرقك معهم.

حاول سالم، صديق العمر لـ«مينا»، الوصول لباب الكنيسة يوم

الكارثة، لكن ابنه الذي كان قد كبر منعه وقال له: ما لنا احنا ومال الكفرة دول وميتا ده مش نصراني وابن صليب.. هتروح إزاي تدافع عنه. وحذره من الخروج لأن «أيمن» «أبورواش» الذي يعمل بمصنعه سوف يطرده لأنه أعطى للعمال إجازة بعد خبر مقتل المخبر وقال لهم: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، وميتا النصراني قتل «سيد» المخبر المسلم، يجب أن نكون في صف أخونا المسلم، وأيد كلامه الشيخ «سعدة» فترك العمال ليحاصروا الكنيسة مع الملتحين ضد أبناء الصليب الذين تزايدوا في الفترة الأخيرة وكبرت شوكتهم وباتوا يقتلون المسلمين دون خوف، ونسوا الجبناء أن المسلمين أسيادهم يجب أن يدفعوا لهم الجزية لينعموا بالعيش والحماية.

حاول «سالم» أن يفهم ابنه أن «مينا» لا يمكنه أن يقتل أحدًا فهو صديقه، لكن الابن صرخ في وجهه وقال: مش ناقص علينا غير معاشرة الكفرة والدفاع عنهم!

ومع ذلك حاول «سالم» الخروج إلا أن زوجته أمسكت بجلبابه وقالت له: ماذا سينفع ذهابك؟! لن يوقف القدر، أرجوك يا سالم، افهم مصلحتنا فين يا خوي ودافع عنها، أيمن «أبورواش» وصبحي المنصوري والفاجرة زوجة «أبورواش» والشيوخ الملتحين يملكون البلدة ونحن طلعنا نزلنا خدامين عندهم، فلا تجني علينا البلاء ليتركونا في حالنا.

بكت ابنته مؤكدة كلام أمها وقالت: لا تخرج يا أبتاه.. لا تخرج، المقدر مقدر، سيؤدي خروجك للمزيد من الخراب.. اتركنا يا أبي نعيش سالمين.

كان «سالم» قد فقد كل عزيمته بعد أن أغلقوا مصنع النسيج الذي كان يعمل به عشرون ألفًا من عمال البلدة، وظل قعيد البيت ولم يرحمه من الموت متحسرًا على حال البلدة إلا الذهاب للجامع كل يوم والجلوس

فيه طوال النهار لبعد صلاة العشاء، محاولًا نسيان أحداث بلدة أعطاها كل شيء وحرمته من طعم وروح ورحيق الأمان في أيامه الأخيرة.

وقف بشباك منزله خلف القضبان الحديدية المطل على الشارع، ناظرًا ناحية الكنيسة، محاولا استيفاء الأخبار من الجيران والمارة، أملًا أن يعود الملتحون لديارهم تاركين صديقه «مينا» سالمًا.

اندهش «عمر» عند عودته في اليوم التالي من سفره عندما سمع أحداث حرق الكنيسة واستشهاد صديقه «مينا» ولم يصدق ما حدث وتساءل: كيف هان على أهالي البلدة اغتيال براءتهم؟ لكنه قال.. مقدر ومكتوب.

كان «عمر» قد تحالف مع ابن أخته «أيمن» بعد أن استولى على ثروة أبيه وعمل معه كمستشار ينصحه لتكبر ثروته ويدير أعماله في تجارة الأراضي الفضاء وتخسير مصانع الحكومة وشرائها ثم بيعها للتجار بأضعاف أضعاف ما دفعه.

بعد أن فقد «عمر» الأمل في إصلاح «أيمن» أشرف وحده على مصانع التعليب الجديدة التي ورثها «أيمن» عن والده محاولا إضاعة المتبقي من العمر وسط زخم المصنع والإنتاج.

في السنوات التي سبقت حرق الكنيسة كان «عمر» قد تغير به الحال بعد أن أصبح مديرًا وشريكًا لأكبر تاجر وصاحب مصانع بالناحية، وتحسنت علاقته بأيمن بعد إصابة «أبورواش» بالشلل وظل قعيد كرسيه المتحرك متوسلا الكلمة الطيبة من الجميع، لكن «عمر» الجديد ما عاد يتذكر الأجداد الأوائل، ونسي أنه كان السبب في وقف هدم الضريح وقلع أشجار ذقن الجن والشمام يومًا ما، نسي مقابلته التي لا تنسى مع «فايز» القسيس و«إبراهيم بليلة» و«أبوعيشة» ووعده لهم بالحفاظ على ما تبقى منهم لينعم الأهل بالأمان، لكن البعض أكد أن

«عمر» لو كان موجودًا في هذا الوقت لما قتل «مينا» أو حرقت الكنيسة.

كان «أيمن» قد طلب من خاله «عمر»، قبل اليوم المشئوم بأسبوع، السفر خارج البلاد ليتوسط له في شراء صفقة حديد تركي سوف يكسب منها «أيمن» مائه مليون جنيه؛ لأنهم يشترون الحديد من الأسواق التركية بألف جنيه ويبيعونها للتجار بخمسة آلاف جنيه، قال «أيمن» لـ«عمر» يومها: يا خالي سوف نكسب مائه مليون جنيه دون أن ندفع مليمًا واحدًا وهذا المبلغ مقابل تعبك ووقوفك بجواري بعد مرض والدي، ابنِ فيللا كبيرة لابنك «علي» وافتح له مصنعًا صغيرًا، هذه صفقتك وأنت حر التصرف في ربحها. ورغم أن «عمر» لم يكن يهتم كثيرًا بحجم الأموال التي يكسبها لكنه سافر ولم يعد حسب تذكرة العودة من تركيا إلا بعد خمسة أيام من حرق الكنيسة ومقتل «مينا».

ورغم ذلك لم تنسَ نساء البلدة الصراخ والعويل التي أطلقته زوجة «مينا» وهي تحمل ابنها ملاك على كتفها، وتقول لكل من تقابله: ألم تشاهد زوجي مينا؟.. كان يجلس مع الملاك الطيب في الليلة الفائتة ببلكونة شقتنا الصغيرة يخططون لبناء كنيسة جديدة لتعليم الناس الحب والإيمان.. ألم تشاهدوا مينا؟.. كانت تشير لابنها «ملاك» الذي تحمله على كتفها وتقول عندما يكبر ابنه سأقول له: شرب دم أبيك حقد بلدة عاش طول عمره يعشق أهلها ويعطيهم الحب دون مقابل.. روت دماء أبيك مجاري الشر لأهالي بلدة أدخل السرور على قلوبهم جميعًا.. وصرخت فيهم: ماذا أقول لملاك ابنه حين يكبر؟

كانت النساء التي تلتف حولها تهدئتها وتقول لها: يا أختي معلش عوضك على الله.. أمرك لله يا أم ملاك.. ربنا مش هينساكي يا أختي.

وحين قابلت «عمر» قالت له: يرضي ربنا يا حاج «عمر» أن تترك صديق عمرك تغتاله يد المجرم ابن أختك ومخبره صبحي المنصوري،

كان «عمر» الذي أصبح حاجًا مهابًا بالبلدة بعد أن زار بيت الله الحرام عدة مرات يهدئها وهي تسبه، ويندهش من اتهامها لابن أخته «أيمن» بحادثة يعلم الجميع أنه مدبرها، وقالت له «أم ملاك» زوجة «مينا»: يا ناقص.. يا واطي أعمتك الفلوس والغل من «أبورواش» فنسيت أصحابك وأهلك ووافقت على سفرك خارج البلاد لحرق صديقك لتنعم بالرضا.. لتقول لنفسك لم أكن هنا وقت الجريمة.. ها أنت عدت وعلمت ماذا ستفعل يا أخو الجريحة، أنسيت إهانة أختك وفقدها لعقلها.. اليوم يغتالون صديقك ويفقدوني العقل يا «عمر».

كان «مينا» الملاك الذي اغتاله هرويك الدائم يعتقد أنه يستطيع إرجاعك وإصلاحك.. كان يعتقد أن قنوات الخير التي ردمت داخلك سوف يحفرها من جديد حين يذكرك بعيون «سيد» صبحي الذي مات بـ«ساقية غنيم».

اندهش الناس من «أم ملاك» التي كانت تحفظ ماضي البلدة الذي فجر قلوب الناس في الماضي بالحب وتساءلوا: من لقنها كل هذه الحكايات؟.. أمقتل زوجها أم حياته!

الفاحشة

الوحيدة التي تعاطفت ودافعت عن «مينا» ضمن أعوان «أيمن» كانت «سماح»، البنت القوية التي كانت تدير أملاك وجمعية «أمينة»، وكانت ذراعها اليمنى في كل شيء، أحضرتها «أمينة» من مصنع للأعشاب يملكه «أيمن» لكسرها بعد أن شاهدت فيها براءة وقوة ورائحة البلدة القديمة، وأقنعتها بالعمل بمكتبها وأعطتها فرصًا كبيرة لتعلم الكومبيوتر واللغات، وكانت «سماح» الذكية تتجاوز تصورات «أمينة» عن إمكانياتها واستطاعت أن تفهم كل الخيوط التي تربط علاقات وثروة «أمينة»، وخلال شهور كانت تدير تلك الامبراطورية التي صنعتها «أمينة» على جثة «أبورواش» المشلول.

كانت «سماح» تعرف تطورات علاقة «أمينة» بـ«سيد» المخبر وكيف أنه بعد مرض «أبورواش» وتسلم «أيمن» مفاتيح الجمعية وإدارة التركة، فقد «سيد» المخبر ثقة «أيمن» وتأثيره عليه بعد بروز نجم «صبحي المنصوري» كرجل الأمن السري الجديد، وتفحمت علاقة «أمينة» بالمخبر التي لحق بشعره الشيب ورفضها محاولات «صبحي المنصوري» التقرب منها.

أبلغت «أمينة» «أيمن» بتلميحات المنصوري الذي استدعاه وطلب منه قطع علاقته نهائيًا بـ«أمينة» لأنها في النهاية زوجة أبيه وتعلم الكثير من الأسرار بالإضافة إلى أن تجربتها السابقة التي خاضتها بالانتخابات وطدت علاقتها بالكبار من ذوي النفوذ، كان «أيمن» يرغب في اتقاء شرها لذلك حين طلبت منه «سماح» مديرة أعمال «أمينة» بأن يمنع تحرشات «صبحي المنصوري» المخبر لم يتأخر.

أغلق «أيمن» سماعة التليفون وهو يقول لـ«سماح» الموضوع خلص مش هتسمعوا صوته ولا تشوفوا وشه تاني.. وعندما قالت «سماح» متشكرين يا «أيمن» بيه، تذكر روح أمه المريضة التي عادت مرة أخرى تحدث نفسها كلما شاهدته وهي تقول له اللي خلف ما ماتش.

كانت «أمينة» الفاجرة تعلم الكثير عن العلاقات النسائية لأيمن «أبورواش» ومع ذلك كانت ترغب في معاشرته وتنتظر الفرصة، ففي مساء اليوم الذي اتفق معها على تقاسم التركة التي ورثاها سويًا عن «أبورواش» رفضت عرضه بترك المصانع والأراضي الفضاء له مقابل الفيللا والجمعية وعشرة ملايين بالبنك سيضعها بحسابها بدعوى أن الوقت تغير وهي لن تستطيع العمل وسط أبناء الشر الجدد الذين تكاثروا بكل الجهات والأجهزة والشوارع، وافقت على شرط أن يروي ظمأها بعد تفحم علاقاتها بـ«سيد» المخبر.

كانت تعلم أنه مثل أبيه يضحي بكل شيء مقابل المال، وكانت ليلة من أجمل الليالي التي استمر «أيمن» يعاشرها حتى طلوع النهار وخلقت مجاري جديدة للشر لعلاقة تستمد أساسها من جبروت وظلم «سيد» المخبر وشر «كليب» وطمع أبيه ليرث «أيمن» كل هذه التركة وحده ويفجر أنوثة زوجة أبيه في ليلة لن تمحى من ذاكرتها أبدًا.

كان «أيمن» يزورها كلما هاتفته وبعد أن يدخل شقتها الواسعة تختال شبه عارية بشعرها الملون بعد أن تكون قد طردت الشغالين وتلبس قميصها المزخرش المفتوح ليظهر نصف صدرها ونصف أردافها عاريين، وتضع لبانة كبيرة وسط فمها وتنظر له فتلهبه ويتفتق ذهن «أيمن» وقضيبه محاولا فهم طبيعة وحب هذه المرأة للحب بشكل فاق قدرته على عشقه للمال!!.

كانت «سماح» الوحيدة التي تعرف سر زيارات «أيمن» المتكررة لمنزل «أمينة» لكنها أبدًا لم تتحدث مع أحد فيها، كانت تهتم بعملها وتتقنه وتدير الجمعية ومواعيد «أمينة» وسفرياتها دون أن تخطئ ولو مرة واحدة لأنها كانت تعلم أن «أمينة» ترغب في هزيمة قوتها الموروثة من رحيق أشجار الضريح فأصرت «سماح» بتحد على المقاومة رغم أموالها وفجرها، كانت «أمينة» تعطيها راتبًا كبيرًا

يكفي لإعالة أسرة «سماح» بعد وفاة والدها وقيامها بالصرف على تعليم إخوتها وعلاج أمها المريضة، لكن «سماح» لم تنس النظرات الشاردة لأيمن «أبورواش» وهو يدخل المصنع محاطًا بالعشرات من البشر، كانت تتعاطف معه رغم كل ما يقال عنه وتخاف على نفسها من أن يفتح قلبها المملوءة ببحور الورد لابن الأكابر أي قناة فتغرق في النهاية في أوهام قد تؤذيها.

ومع ذلك في اليوم الوحيد الذي طلب منها أن تدبر سفر خاله «عمر» لمدة أسبوع بعد أن استأذن «أمينة» وافقت في الحال، وحين أغلق سماعة التليفون وقالت مع السلامة يا «أيمن» بيه تذكر أمه «جمالات» الشقية التي علمت البلدة الطيبة، كانت ذكرى أمه تأتيه دائمًا كلما رأى أو سمع صوت سماح، وتساءل مع نفسه عن سر رائحتها وشعاع الحب والعطف والود الذي ينزف من عينها والذي لم يحسه إلا بأحضان أمه «جمالات».

بعد أن دبرت سفر خاله طلب منها «أيمن» أن تأتي بمكتبه لمناقشة بعض الأمور المشتركة بينهم ولإقامة تحالف بين جمعيته وجمعية «أمينة»، وبعد أن أقنع «أمينة» في ليلة كان عنوانها: هل ستضحي بالحب أم بالجمعية؟ فحافظت «أمينة» كعادتها على أنوثتها وضحت بالجمعية لتنعم بليلة أخرى مع أيمن، فعاشرها طائرًا بها لبحور الحب مع ملائكة وشياطين الجنس الذين ابتدعوا الشهوة والرغبة، وكان يأخذها من نهر الورد إلى حديقة العشق ومحيط الفجر.

في هذه الليلة استرجعت كل لحظات الحب التي عاشتها مع عشرات الرجال الذين أذهلهم فرجها المفتوح وأوشة عينيها وهي تتأوه من فرط النشوة، لكنها تركت دون أن تدري لمجرى الحب أن يترعرع بين الجمعيتين بفعل رائحة «سماح» لتتحولا لجمعية واحدة يستولي «أيمن» في النهاية على مجلس إدارتها ويُقعد «أمينة» بالمنزل.

في هذه الأثناء كانت لغة العيون تتشابك بين «سماح» وأيمن ونبت الحب بين القلوب، وبعد أن توقف «أيمن» عن زيارة «أمينة» وري عطشها، فهمت في النهاية تقلبات الزمن وغدره بعد أن أسهمت دون أن تدري في بناء أواصر قوية بين «سماح» و«أيمن» انتهت بإعلان زواجهما.

لم تكن «أمينة» وحدها هي الخاسرة من الزيجة الجديدة، بل إن «إيمان» مديرة جمعية «أيمن» التي أعطاها خمسين ألف جنيه لتكتب استقالتها من الجمعية بعد ضم الجمعيتين لتديرهما «سماح» وحدها، حاولت «إيمان» في الأيام الأخيرة منع مجرى الحب الجديد من التدفق بعد أن تنكر «أيمن» لعلاقتهما، وقال لها في تبجح: عاشرتك خمس سنوات ولكنك أخذتي الثمن، تركبين سيارة وتملكين شقة وأعطيتك أموالا تكفي لإعانتك العمر كله، لا تكوني طماعة اكتبي استقالتك فليس لك مكان بحياتي أو بالجمعية بعد اليوم.

حاولت في هذا اليوم أن تذكره بالليالي الجميلة التي قضوها سويًا في المدن المختلفة، حاولت أن تذكره برائحة فرجها وثديها حين رآهما أول مرة.. حاولت أن تذكره بأنها «إيمان» العشيقة التي علمته فنون الحب وأوضاعه.. لكنه قال: لم يعد لك مكان بقلبي.

كانت «أمينة» الوحيدة التي تعرف سر مقتل «سيد» المخبر والذي تواطأ أبناء الشيطان عليه ليأخذوا روحه ويلقوا بجثته بمقلب الزبالة، فأكدت في شهادتها أمام النيابة بأن «صبحي المنصوري» الذي كان دائم الحضور لجمعية «أيمن» ولم يجرؤ أبدًا على ملاطفتها بسبب نظرات «أيمن» القاسية له، دبر المكيدة ووافق «أيمن» عليها ليثأر من خيانة «سيد» المخبر لأبيه وعشق زوجته الثانية جهارًا بعلم كل أهالي البلدة.

أكدت بأقوالها أمام النيابة بأن المنصوري وأيمن اتفقا سويًا على قتل «سيد» المخبر لينتقما من ماض مظلم موحش دون أن يفهموا أن «سيد» المخبر هو الذي دفع الثمن في النهاية انتهزوا فرصة اتفاق «أيمن» مع الأب «بيشوي» على بناء كنيسة جديدة بعد ازدياد عدد أبناء الشعب المسيحي وعدم استيعاب الكنيسة القديمة على القيام بدورها في دعم البر والخير.

انتهزوا الفرصة ليسمحوا للشر بالانتشار والحكم على بلدة الحب بالموت وفقدان الهوية كي يستمروا في الحكم والنهب بإلهاء الناس بجرائم تافهة بالمقارنة بتوحشهم.

قالت: سمعت «صبحي المنصوري» المخبر الجديد في هذا اليوم يقول لأيمن: لن نتركه يبني كنيسة جديدة لأبناء الصليب ويتكاثروا وتقوى شوكتهم ليمنعونا في النهاية من حكم البلدة، وبعد أن أخذ الموافقة من أسياده للتخلص منه، وألهمه جبنه ليضرب عصفورين بحجر واحد فيتخلص من المخبر القديم ومينا الملاك في وقت واحد ويلهي القرية سنين بالحكايات وأحداث كئيبة حبكها بمكتب أيمن.

أكدت «أمينة» أنها تعلم أن المنصوري يوشي للأجهزة المختلفة بفساد «سيد» المخبر وعدم قدرته على ملاحقة وصنع الأحداث الجديدة التي تحكم البلدة مما سهل مقتله.

أكدت في شهادتها أنها شاهدت «أيمن» وهو يرسم خطة لمقتل أحد شركائه مع مجموعة بلطجية دون أن ترف عينه وقالت: في مساء هذا اليوم كان يعاشرني وعلى أثر تليفون غريب استأذن وتركني دون أن يطفئ ناري، فذهبت وراءه لمقر الجمعية استعطفه ليسهر باقي الليلة معي، فأجلسني بأحد غرف الجمعية حتى ينهي الاجتماع ويذهب

بعدها معي لشقتي يفجرني نشوة.

كنت أشاهد خياله وأسمع صوته وهو يقول للبلطجية سوف تلقون النار في شقته ولكن قبل ذلك اقتلوا زوجته وابنه أمامه وأخرجوا قلوبهم وقولوا له: سوف يتعشى «أيمن» بيه بقلوب أبنائك غدًا لأنك تجرأت ورفضت ترك الأرض القبلية في مصنع النسيج ليقيم عليها مدينته السكنية، وحين قال له أحد البلطجية، وهل سنحضر لك قلب ابنه لتأكله فعلا.

أخرج سيفًا من درج مكتبه وقطع رأسه أمام زملائه وفتح كرشه وأخرج قلبه وقال لهم: أتعرفون كيف ستحضرون الآن كبد.وقلب ابن وزوجة شريكي حتى آكلهما غدًا، قالوا جميعًا: نعم.

خرج من حجرة الاجتماعات ليأخذني في يديه ويذهب لمنزلي يعاشرني كامرأة فاجرة ارتضت معاشرة الشيطان حين قبلت منذ البداية الزواج على أمه «جمالات» الطيبة.

ورغم كل اتهاماتها لأيمن بمحضر الشرطة إلا أن النيابة حفظت التحقيقات ولم تجرؤ على استدعائه في اتهامات زوجة أبيه التي فقدت لا شك عقلها، فكيف يمكن أن تنكر امرأة كل تلك الوقائع وتفضح نفسها سوى فقدانها للعقل.

وأعتقد «أيمن» أن مقتل «سيد» المخبر سيسهم بالبدء بمرحلة جديدة لا وجود فيها لـ«أمينة» عشيقته ولا «إيمان» الداعرة وتصور بهذه البداية الجديدة أنه يمحو الماضي ليبدأ رحلة جديدة للحب مع زوجته «سماح» لتعيده مرة أخرى ليفهم حكايات الآباء والأجداد في هذه البلدة التي علمت ونشرت يوما ما الحب والأمان على الجميع.

لكن مقتل المخبر أزهق روح الأمل في بلوغ البلدة مرحلة الأمان،

ففي يوم مقتله حرق الملتحون الكنيسة وقتلوا «مينا» الطيب الذي لم ينسه أحد، «مينا» الذي حاول أن يعيد الناس لذكرى الأجداد والرجال الأوائل.

عاش «أيمن» ثلاث سنوات مع «سماح» يحلم بقدرتها على تعليمه المعاني النبيلة بالبلدة التي فقدتها في يوم غل. لكنها في النهاية قالت له: إن المعاني والأمان داخلنا ولا نحتاج لأحد كي يعرفنا طريقها، أنها بداخلك ليس عليك إلا استفتاء القلب.

لم يفهم «أيمن» ما قالته وتركها وخرج دون أن يفهم أن قلبها كـ«جمالات» لا يفهم إلا الحب.

في هذا الوقت اختلت موازين الشيخ «سعدة» للحكم على الأحداث والأشخاص، فبعد أن حوله «سيد» المخبر لمرشد وعينه «أبورواش» إمامًا للمسجد ولم يعد يقدر أو يفهم المعاني والمسافة بين الصح والخطأ.. ورغم أنه عاش تجربة مهيبة فبعد أن كان يزرع الأرض ويرعى المواشي في صباح يوما ما ليبهج الناس في الطرقات بضحكته وصوته الجهوري، إلا أن الشيطان تمكن من قلبه وذهب به ليقتل أبناء عائلة «الزهرانة» ويثأر لوالده بعد أن وضعوا رأس أبيه بوحل الترعة، ولولا أن لحقه «إبراهيم بليلة» قبل أن تغتاله رصاصات جهلهم لكانت جثته قد مثل بها في ذلك اليوم، ومع ذلك أمر العمدة بحبسه ثلاث سنوات وعاد من السجن فاقدًا الوعي والحكم على الأمور فعينه «أبورواش» إمام للمسجد واستطاع «سيد» المخبر بكل جبروته أن يحوله لمرشد تابع للأجهزة السرية فيوشي بأسرار المصلين.

وحين ماتت «أم سعدة» وتركت زوجته وبناته معه تحت سقف واحد لم يتحملوا رائحته النتنة أكثر من شهرين فاختل عقلهم تحت وطأة ضربه المتكرر بوجوههم كأنه يعاقب الرب على خلق أجمل الوجوه في

منزله بسبب مصيره الذي اختاره كملازم للشيطان.

لم يتحمل عقل سعده كل الأحداث التي مرت بها البلدة، وحين فوجئ يوم حرق الكنيسة بكل هذا الغل من عيون الملتحين وبتواطؤ «صبحي المنصوري» المخبر الجديد عادِ لعقله النور فاقتحم الجمع بعصاته وخلع ملابسه كاملة ليعيد للبلدة مشهد العري حين ذهب لأخذ ثار والده.

ووقف على باب الكنيسة لمنع الملتحين وعمال مصنع «أيمن» من اقتحامها، كان وجوده بجوار «أم عويس» و«نصرة» و«زعبولا» و«أبورواش» مدعاة للفخر أذهلت «مينا» وهو ينظر من وراء قضبان شباك حجرته التي حبسوه فيها ليصرخ في السماء الصرخة الأخيرة لتعيد الخير وتحمي الناس من الشر.

لكن «سعدة» الذي أصيب بسكاكين وسيوف الملتحين في عقله وقلبه ليموت طاهرًا من كل الشرور التي ارتكبها الآن، كان قد ترك إمامة المسجد لـ«سالم» صديق «مينا» المحال للمعاش، الذي أجبره «صبحي المنصوري» على الذهاب للقسم كل أسبوع ليحكي عن اهتمامات الناس ويتحول «سالم» الذي كان يرمز للحب مع الأبطال الأربعة الذين دافعوا عن الضريح في يوم ما لمخبر يوشي بأحزان أهله.. فأي قوة وجبروت تحلى بها «صبحي المنصوري» المخبر الجديد ليحول البشر إلى كلاب !!

الحرق

لم يصدق الناس منظر «أمينة» العجوز وهي تكلم نفسها، بالرغم من أنها حافظت على سيارتها وملايينها بالبنك إلا أنها لم تعمل حسابًا لغدر الزمن الذي أودى بمصيرها للهلاك.

في هذا اليوم صرخت في المارة أمام مقر جمعية «أيمن» ليفسحوا لها الطريق، تركت سيارتها وصعدت لمقر الجمعية وشاهدت «إيمان» بصدرها المفتوح وقوامها الممشوق فابتسمت وقالت بفجر تعرفه أكثر من أية امرأة: «أيمن» بيه فين يا ست إيمان؟

كانت «إيمان» عشيقة «أيمن» قد عادت مرة أخرى لإدارة الجمعية بعد أن طلق «سماح» وطردها بابنها لتعيش مع «جمالات».

واستولت مرة أخرى على إدارة الجمعية وأصبحت هي المتحكم الأول والأخير في كل شؤونها، بعد تفرغ «أيمن» لتجارته التي توسعت وأصبحت الجمعية مكانًا لتذكر الناس ببطش «أبورواش» وهروب «كليب» بأموالهم والمتاجرة بأحزانهم وخيانة الزوجة وارتكابها الفاحشة مع ابنه.

وتذكر الناس كيف أسس «أبورواش» الجمعية من تبرعات الفقراء التي جمع منهم المعلومات والقروش القليلة ليبني مكانًا ظل ذكرى دائمة للنهب وسرقة أحلام وطموحات الأهل.

استولت «إيمان» على عقل وقلب «أيمن» من جديد الذي لم يعد فيه سوى الغل وأرقام الحسابات فكان يعاشرها بالنهار والليل في فجر اندهش هو نفسه من قدرته على كل هذا التوحش في الجنس.

كانت «إيمان» تأخذه حين يعاشرها لمملكة الجنس الفاجرة التي ألهبته وأذهلت ذكورته بأوضاعها ونشوتها لدرجة فاقت الليالي التي فجرته فيها «أمينة» التي ضحت بكل ما تملك من أجل الحب.

مرت تلك الصور في ثوانٍ بذهن «أمينة» الفاجرة العجوز لتسأل «إيمان» بلوع هي تعرفه عن مكان أيمن، لم تنس «إيمان» أن «أمينة» كانت خليلة «أيمن» في يوم ما ولم يمنعها جبروتها من معاشرته برغم عدم جواز ذلك شرعًا، فردت مستاءة في قوة وتوحش على «أمينة»: مش موجود.

لكن «أمينة» كانت قد جلست وأشعلت سيجارتها وقالت لإيمان: اتصلي بيه الخول ده علشان أشوف الجمعية التي ورثها عني وعن والده دخلها كام ويتصرف إيه. ردت «إيمان» لتحرق دمها وتسكب عليها النار: أيمن بيه رئيس مجلس إدارة الجمعية لا يعرف شيئًا عنها، وأنا أقدم لمجلس الإدارة الميزانيات في اجتماعاتهم السنوية وأنا المسؤولة عن كل شيء، وإذا كنتي تحتاجينه اذهبي إليه في شقته القديمة واسأليه. وأشارت في لوع لمكان الشقة القديمة ودون أن تنطق قالت: إذا كنتي نسيتي شقته التي عاشرتيه فيها مئات المرات أرسل معكِ أحد الأهالي ليذكرك بمكانها.

صرخت «أمينة» بـ«إيمان» وقالت لها: كيف تكلميني يا شرموطة بهذه الطريقة أنتي نسيتي نفسك، أنتي طلعتي نزلتي بتاخذي ثمن معاشرتك له. كسرت «أمينة» بعصاتها التي تتعكز عليها زجاج مكتب «إيمان»، فصرخت «إيمان» وتجمع الموظفون ولولا عشرة منهم منعوا مجرى الشر في هذا اليوم من الانفجار لكانت «إيمان» قتلت في هذا اليوم.

ومع ذلك قامت «إيمان» بغسل جثتها واستخراج تصاريح الدفن لها وإحضار المقرئين ليصلوا على روحها بعد أن حرقت في شقتها دون أن يفهم أحد كيف تم ذلك؟ فبعد أسبوع من اقتحامها مقر الجمعية، ورغم وجود «عالية» الشغالة مع «أمينة» في هذا اليوم حتى العاشرة مساءً ولم تترك الشقة إلا بعد أن نامت، إلا أن الجريمة وقعت وقيدت ضد

مجهول، حين علم «أيمن» المسافر دائمًا بالخبر أعطى أوامره لـ«إيمان» باستخراج تصريح الدفن وإقامة مراسم جنازة تليق بـ«سيدة»غذت طوال عشرات السنين ممرات الغل والشر والفاحشة، وظلت طوال عمرها ترويها بعلاقاتها المحرمة وجبروتها، ولكن الجميع كان يعلم أن «إيمان» التي أهانتها «أمينة» العجوز، قد ردت الإهانة بحرقها وحيدة بالشقة.

كانت «جمالات» في هذا اليوم تغني لابن «سماح» حفيدها بعد أن رفضت العيش مع «أيمن» بعد عودته مرة أخرى لأحضان «إيمان» وتسليمها مفتاح الجمعية لتديرها وحدها دون منافس وتستولي على أموالها مقابل ليالي العشق الذي ينعم بها معها، وحين سمعت «جمالات» خبر حرق «أمينة» قالت: الجزاء من جنس العمل.

استعادت «جمالات» صحتها وعقلها بعد بلوغ حفيدها العاشرة وأحست بأنه الشجرة الباقية التي يجب عليها أن ترويها كل يوم لتوجد جيلا آخر مختلفا يمكنه أن يعيد لها ابنها الضائع وأخاها «عمر» الذي مات محسورًا على صديقه «مينا» بعد تدبير سفره، ليربح الملايين من صفقة الحديد الذي أضافت لحسابه مائه مليون جنيه، هرب من البلدة حتى لا يشاهد اليوم الأخير بمرحلة «أبورواش» و«سيد» المخبر و«مينا» الملاك.

ترك «عمر» ابنًا جميلاً يكبر حفيدها بثلاثة أعوام، لكن زوجة أخيها التي ظلت صامتة طوال عشر سنين، انفجرت بالشارع في «أيمن» بعد أن مات زوجها «عمر» محسورًا، فحين جاءت عينيها بعينه أمام مقر قسم الشرطة قالت له: يا مجرم لم يعد لك مكانًا بيننا.

وتذكر الناس وقتها «عمر» حين عاد من السفر ليخلص أخته «جمالات» الشقية من سجن «أبورواش» بعد أن تلقى خطابها الأخير

وكان يجلس وسط الأبطال الأربعة التي تذكرهم البلدة بكل الخير وقال: ها أنا قد عدت ولم يعد للمجرم مكان بيننا.

أحضرت «جمالات» العائدة لعقلها العمال لرفع أكوام الزبالة من حول الضريح، ووهبت خمسين ألف جنيه لتجديده، وأحيت المولد الكبير لأول مرة بعد أن نسي النّاس عشرين عامًا أن وسط حواريهم الضيقة يقع الضريح الذي كانت بركاته يومًا ما سببًا في خلق الحب والضمير بالبلدة، وأعادت ليلة الموالد من جديد ذكرى «إبراهيم بليلة» و«أبوعيشة» خادم الضريح و«فاين» القسيس.

وجاءت سنية بنت «إبراهيم بليلة» ووضعت الخضار والفاكهة أمام الضريح ليتذكر الناس الحب الذي قدمته أم عويس للأبناء والأهالي، وحين لمح الجميع زوجة «مينا» وهي تسحب ملاك الذي بلغ العاشرة وتحمل فوق رأسها اللحوم والفتة ليأكل المريدون والفقراء حول الضريح، علموا أن بركات ساكن الضريح بالأمل والحب سوف تنتصر.

أحضرت زوجة «عمر» الجنائنية بمساعدة ابنها «علي» ليعيدوا زراعة أشجار ذقن الجن والشمام بعد أن تفحمت الأشجار القديمة. اندهش الناس مرة أخرى من «جمالات» الشقية وهي تحتفل في الليلة الكبيرة معهم بمولد ساكن الضريح وإحضارها المنشدين وذبحها ثلاثة عجول ليأكل المريدون في الحب والمديح، وجرت تلك الأحداث الجديدة في غفلة من الزمن أعاد للأذهان من جديد أحداث البلدة الأولى.

القسم الرابع

الضمير

أمشي كثيرًا في الحواري أتفقد مداخل البيوت لأفهم سر ما حدث، كانت الروائح المنبعثة من الأشجار الجديدة تبهر الناس وتبارك الجميع بعودة المطر في الصيف ليغسل البلدة من جحودها، كانت البنات يقفن ببلكونات المنازل ينتظرن عودة المحبين وأبدع الناس في تطهير قنوات الخير التي تخيلوا أنها ردمت للأبد بعد أن تغيرت ملامح وشكل البيوت.

ترك «سالم» البطل الرابع الذي ظل حيًا بعد معركة الكنيسة منزله بعد شجاره الدائم مع أبنائه وزوجته وهرب من الجامع و«صبحي المنصوري» المخبر ليخدم الضريح.

ظهرت «جمالات» كامرأة كاملة قوية في هذا العهد وأنشأت من جديد صندوقًا للبر بعيدًا عن الجمعيات التي انتشرت وجنت على البلدان والناس الفقر والذل والحرمان، التفتت النساء والرجال حول «جمالات» لتحقيق أحلامهن في الحب والأمان.

وأبدعت أم «مينا» وزوجة «عمر» وسماح اللتين قررتا التصدي لجبروت «أيمن» و«إيمان» متسلحين ببركات ساكن الضريح فبدأت مع النساء والرجال والأطفال الذين جرح كرامتهم حرق الكنيسة في زراعة أشجار ذقن الجن والشمام بحواري البلدة وحول الضريح.

كانوا يتلمسون بركاته، وهو الميت في ضريحه كي تنتج بذورهم ويعود المحبون لبلدتهم وتتزين النساء من جديد لتبهج السماء بأرق وأعطر روائح الحب.

وضعت سنية بنت «إبراهيم بليلة» أقفاص البرتقال والخضر بجوار الضريح لتحمي الأطفال من العفاريت والجن الأزرق وأمنا الغولة فأعادت للبلدة ذكريات أم عويس التي حملت الحب لكل الأطفال والأهالي.

شكل «ملاك» بن «مينا» و«علي» بن «عمر» و«مازن» بن«سماح» و«كريمة» بنت «سنية بليلة» فريقًا جديدًا لصيد العفاريت واصطياد طائر الموت الذي كان يهددهم بالخطف.

كان «سالم» البطل الباقي من ذاكرة البلدة يحكي عن الرجال الأوائل وكيف حافظوا على الأحلام والحب ودافعوا عنها، حتى غادروا البلدة ليحافظوا على أجمل ما فينا، وبقيت ذكرياتهم وحكاياتهم تعيد الأمان على البلدة.

فتحت المصانع المهجورة أبوابها وعادت عربات الفول والبطاطا والترمس والفاكهة تنتشر أمام بوابات المصانع التي تم تشغيلها من جديد لتنتج العمران ويشتري آلاف العمال «البطاطا السخنة» عند تغير «الورادي».

تفتحت البذور بالأرض لتنتج من جديد ثمار البرتقال الذي يشبه المانجو في نهاية الموسم فيأكله الناس ليشفي أرواحهم من الحقد.

تلذذ الجميع بتناول أطباق الفول والبصل والزيت الحار ونعموا بخيرات الله التي خرجت من أرض بلدتنا الطيبة.

أعاد الناس بناء الكنيسة التي حرقت وصمم الخلق جميعًا على مشاركة البناءين والحدادين والنقاشين والسباكين صنع أجمل الحجرات ودورات المياه والألوان وخلطوا أرواحهم بمواد البناء فظهرت الكنيسة من جديد كأفخم بناء يشع نورًا، ولم يفهم كل الزائرين للبلدة سر البراح والحب الذي تملأ جوانبه قاعة الكنيسة الرئيسية وصورة الرب والأم المعلقين في أعلاها يضخون على الناظرين السكينة والحب.

استمتع الناس مرة أخرى بالبراح حين شاهدوا القس زخاري يجلس مع «سالم» على مصطبة الضريح يحكيان نفس الحكايات القديمة التي

كان يحكيها القس «فاين» مع «أبوعيشة» خادم الضريح.

كانت «سنية بليلة» تفرش خضارها بالشارع وعينها على الأطفال وهم يلعبون لعبة «الغمية» حتى لا تخطفهم أمنا الغولة في غفوة منها، تلاطفهم وتقول إنها تخبئ شعر مازن الأصفر حتى لا يطمع فيه الجن الأزرق ويخطفونه ويسرقوا عيونه العسلية، وعادت البلدة من جديد للضمير.

كان المجرم سليل المخبرين «صبحي المنصوري» مشغولا بخدمة سيده «أيمن» وعشيقته «إيمان» مديرة الجمعية الكبيرة التي أنتجت عشرات الجمعيات الأخرى التي لم يكن يهم أعضاؤها شيئا سوى النهب على طريقة «أبورواش» و«أمينة» و«أيمن» و«إيمان».

في غفلة من بطش المجرم الجديد عاد الضمير للبلدة فقال لنفسه وهو ينظر لجموع الناس من خلف قضبان قسم الشرطة: لا يمكن القضاء على روحهم أبدًا.

وحين قابل «إيمان» آخر الليل في شقتها خارج البلدة أكد لها أن بائعي البطاطا مبتهجون آمنون، وهم يقدمون البطاطا الطازة للأطفال أمام الكنيسة الجديدة والضريح والشارع الرئيسي بالبلد، و«أيمن» بيه في سفرياته مشغول دائمًا ولا يهتم بتزايد أعداد المريدين حول الضريح.

انزعجت «إيمان»، التي كانت تلبس أحلى قمصانها الذي يظهر أفخاذها وثدييها كاملين، بانشغال المخبر ببائعي البطاطا وسفريات «أيمن» وترك أنوثتها تنتحر في يده، قالت له: ألا تشم رائحة فرجي يا «منصوري»، أنا أريدك أن تطفئ ناري. أخذ قرص فياجرا ليعاشرها ويطير بها لخارج البلدة التي توسعت في الأيام الأخيرة ولم يعد الأمن يتحكم في فتح الأبواب ومنع الطيور من الغناء، مما أقلق «صبحي المنصوري» وجعله تائهًا في هذه الليلة، رمته «إيمان» أرضًا وركبت

فوقه لتطير وحدها وسط الأكابر التي حلمت أن تعيش وسط قصورهم العالية لتعاشر كل يوم فتى جديدًا تتفجر ذكوريته فيطفئ نار أنوثتها الملتهبة، وامتطت «المنصوري» الليل كله حتى صعقته.

وحين شاهد الناس في اليوم التالي صور «إيمان» تملأ الميادين لترشيح «المنصوري» لها كعضوه بالبرلمان، وأطلقت حملة جديدة بدعم المنصوري وأتباع «أيمن» بمعاونة الملتحين الذين احتلوا المساجد والزوايا لتنظيف شوارع البلدة من الباعة المتجولين وقبضوا على باعة البطاطا ومزقوا عرباتهم.

علم الأهالي أن الضريح وأشجاره الجديدة في خطر، في مساء هذا اليوم قرر «سالم» و«جمالات» و«أم مينا» ترك البلدة والهروب بأحلام الناس ليحموها من الهلاك والنسيان.. لكن «سماح» وزوجة «عمر» رفضتا الخروج وقررتا المقاومة من جديد والدفاع عن الضريح وأشجاره، ليكتب بعد انتهاء المعارك الجديدة أن أحداث هذه البلدة المحزنة لن تنتهي إلا ببلوغ الضمير.

صدر عن الدار

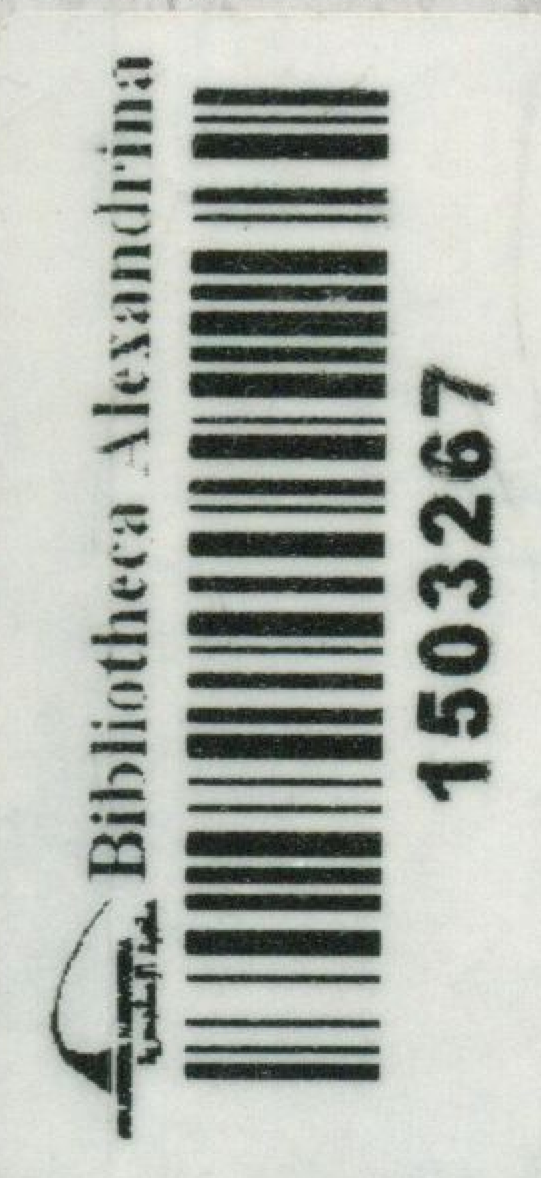
تخاريف خريف	شعر	مؤمن المحمدي
كل ما صنع الحداد	شعر	محمود خيرالله
قطة وقديسة وجنية	شعر	عبد الرحيم يوسف
حدثتنا ميرا	رواية	لميس فارس المرزوقي
إف/هم	رواية	كملمي
زعماء وعشاق	مقالات	سيد عبد القادر
يا قليل الأدب	نصوص	ميشيل نبيل
المدينة الملعونة	رواية	سعيد البادي
حوار الطظ	وثيقة	سعيد شعيب
المثقفون وكرة القدم	مقالات	أشرف عبد الشافي
الآخر في الشعر العربي	نقد	د. أيمن بكر
تفسر أعضاءها للوقت	شعر	وليد علاء الدين
يوميات من القرن الأفريقي	رحلات	علي العمودي
آلة الزمن	كوميكس	خالد الجابري
القطط أيضا ترسم الصور	قصص	أحمد شوقي علي
الشياطين لا تأتي عصرا	قصص	أشرف عبد الكريم
المهارات الأساسية في الكتابة العربية	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
مرة ١ مسلم و ١ مسيحي	مقالات ساخرة	محب سمير
أرقام سرية	شعر	ميسرة صلاح الدين
تدريس أدب الأطفال	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
التربية العملية الميدانية	تعليم	د. محمد محمود موسى د. محمد سعيد حسب النبي
فتوات وأفندية	مقالات	د. ياسر ثابت
كائنات الورق	قصص	مالك عبيد
الطريق إلى قصر العروبة	سياسي	محمد علي خير
الضريح	رواية	كرم صابر
موسم الفراشات الحزين	رواية	أسامة حبشي
رائحة فرنسية	رواية	أسامة عبيد

قيد الإصدار

صعود ليبرمان	تحليل	أكرم ألفي
عيّل بيصطاد الحواديت	كتاب شعري	مجدي الجابري
حرب بلا نهاية	سياسة	رالف بيتر
قراصنة المتوسط	تاريخ	مجموعة باحثين
مرآة الشرق	تاريخ	مجموعة باحثين
مع ملائكة مكّة	رحلات	سعيد البادي
حديث للضحى	شعر	صبري فواز
حبّـــات التـــوت	قصص قصيرة	عادل العجيمي
شوق	رواية	خليل أبو شادي

لم يكن يتصور أحدٌ أن يقتلوا «مينا» الذي قدم كل الخير على مر السنين، وأعطى دون أن يسأل أبدًا عن المقابل.. لم يكن يتصور أحدٌ أن يقتلوا «مينا» ذلك البطل الذي حارب مع أهالي البلدة دفاعًا عن الضريح حتى لا تفقد البلدة رائحة أشجار الشمام وذقن الجن.. قتلوا «مينا» وفقدنا ذكرى حكايته عن الملاك الطيب بين السماء والأرض، قتلوه بدافع الغل والكره ليدفنوا الذكريات الطيبة والحب بأعماق مجاري الشر داخلهم.

Cover design by: Alaa Elnewehy





www.sefsafa.com